نوال السعداوى

رواية

في زمن النفط

مكتبة مدبولي



الطبعة الأولى ١٩٩٣

الناشر

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

الحـــب فــى زمــن النفــط

روايـــــة

نــــوال الســــعداوى


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك اليوم من سبتمبر ظهر الخبر فى الصحف.

نصف سطر أخرجته المطابع متآكل الحروف :

– خرجت امرأة فى اجازة ولم تعد.

كان اختفاء الناس أمرا طبيعيا. كل يوم تطلع الشمس بمثل ماتطلع الصحف. فى الصفحة الداخلية ركن لأخبار الناس. كلمة «الناس» يمكن حذفها أو استبدالها بكلمة أخرى، دون أن يتغير شئ فى الكون. الناس. الشعب. الأمة. الجماهير. كلمات تعنى الكل ولاشئ فى آن واحد.

فى الصفحة الأولى كانت هناك صورة ملونة لصاحب الجلالة. بالحجم الطبيعى. وعنوان كبير :

– الاحتفال بالعيد الميلادى الملكى.

فرك الناس عيونهم. زوايا الجفون متآكلة. قلبوا الصفحة وراء الصفحة. تثاءبوا حتى طقطقت عظام الفكين. وظهر الخبر فى الصفحة الداخلية، لايكاد يرى بالعين المجردة.

– خرجت امرأة فى اجازة ولم تعد.

لم تكن النساء تخرجن فى إجازة. وان خرجت واحدة فهى تخرج لقضاء حاجة ضرورية. قبل الخروج لابد من تصريح مكتوب من زوجها، أو مختوم من رئيسها فى العمل.

لم يحدث أن خرجت امرأة ولم تعد. كان يمكن للرجل أن يخرج ولايعود سبع سنين، ومن بعدها يحق للزوجة أن تتحرر منه.

نشط رجال البوليس فى البحث عنها - خرجت منشورات وإعلانات فى الصحف تطلب العثور عليها حية أو ميتة، ومكافأة سخية من صاحب الجلالة الملك.

- ما علاقة صاحب الجلالة باختفاء امرأة من عامة الناس؟

كان معروفا أن لاشئ يمكن أن يحدث فى العالم دون أمر من صاحب الجلالة. مكتوب أو غير مكتوب. لم يكن جلالته يعرف القراءة أو الكتابة. وكان ذلك نوعا من الامتياز فما جدوى القراءة والكتابة؟ كان الانبياء لايعرفون القراءة ولا الكتابه، فهل يمكن للملك أن يكون أفضل من الأنبياء؟

وكان هناك أيضا الآلة الكاتبة : وهى تدور بقوة الكهرباء.

وآلة كاتبة جديدة تدور بقوة النفط، وتكتب بجميع اللغات. وراء الآلة الكاتبة كان هناك كرسى من الجلد يدور. من فوقه جلس مندوب البوليس. فوق رأسه تتدلى من الجدار صورة مكبرة لصاحب الجلالة، داخل اطار من الذهب، حواشيه محلاه بحروف مقدسة.

- هل حدث أن خرجت زوجتك فى إجازة من قبل؟

أطبق زوجها شفتيه فى صمت. اتسعت عيناه كمن يصحو من النوم

فجأة. كان مرتديا منامه وعضلات وجهه متهدلة، فرك عينيه بطرف إصبعه وتثاءب. كان جالسا فوق كرسى من الخشب ثابت فى الأرض.

- لا.

- هل حدث بينكما شجار؟

- لا.

- هل خرجت عن طاعتك فى يوم من الأيام.

- لا.

كان التحقيق يدور فى غرفة مغلقة. لمبة حمراء معلقة فوق الباب. لايخرج شئ الى الصحف. تحفظ التقارير داخل ملف سرى له غلاف أسود. كتب عليه:

- «إمرأة تخرج فى إجازة».

مندوب البوليس كان جالسا فوق الكرسى المتحرك. يدور به فيصبح ظهره ناحية الجدار وصورة صاحب الجلالة. فى مواجهته كان الكرسى الآخر ثابتا فى الارض، من فوقه جلس رجل آخر، ليس زوجها، وانما رئيسها فى العمل.

- هل كانت من النساء المشاغبات أو المتمردات على النظام؟

رئيسها فى العمل كان واضعا ساقا فوق ساق، بين شفتيه غليون أسود يلتوى الى الأمام مثل قرن البقرة. عيناه شاخصتان الى أعلى.

- لا. كانت امرأة مطيعة تماما.

- هل يمكن أن تكون قد اختُطِفتْ أو اغتُصِبتْ؟

- لا. كانت امرأة عادية لاتثير الرغبة فى اغتصابها.

- ما معنى ذلك؟

- أعنى كانت امرأة مستسلمة لاتثير شهية أحد.

هز مندوب البوليس رأسه علامه الفهم. استدار بالكرسى فأصبح ظهره ناحية رئيسها. دق بأصابعه فوق الآلة الكاتبة. تسربت رائحة غريبة تشبه الجاز المحروق. مد ذراعه وأدار المروحة. ثم استدار بالكرسى.

- أتعتقد أنها هربت؟

- ولماذا تهرب؟

لم يكن أحد يعرف لماذا يمكن لامرأة أن تهرب؟ وإذا هربت فإلى أين تذهب؟ وهل يمكن أن تهرب وحدها؟

- أتظن أنها هربت مع رجل آخر؟

- رجل آخر؟!

- نعم.

- لا يمكن. كانت امرأة شريفة تماما، ولاشئ يشغلها إلا العمل والبحث.

- البحث؟

- كانت تعمل فى البحوث بإدارة الحفريات.

- الحفريات. مامعنى هذا ؟

- الحفريات هى الآثار المكتشفة من حفر الأرض.

- مثل ماذا ؟

- تماثيل قديمة للآلهة القدامى مثل آمون، وإخناتون، أو الإلهات القديمات مثل نفرتيتى وسخمت.

- سخمط؟ ماهذا .. ؟

- إلهة الموت القديمة.

- أعوذ بالله !

وجاء خبر من ناظر إحدى المحطات النائية. شوهدت امرأة تهبط الى المركب. من فوق كتفيها تتدلى حقيبة جلدية بحزام طويل تشبه الطالبات أو الباحثات فى الجامعة. كانت امرأة وحيدة تماما بلا رجل. شئ يطل من حقيبتها له رأس حديدى مدبب يشبه الأزميل.

أصبح مندوب البوليس متوترا. ظهرت حبات العرق فوق جبينه. ضغط فوق زر أسود فازدادت سرعة المروحة. كان لها عنق يدور حول نفسه، وهواء الغرفة شبه مخنرق.

- أكانت امرأة طبيعية؟!

فوق الكرسى الخشبى الثابت جلس رجل من علماء النفس. كان فمه يميل الى الاعوجاج ناحية اليسار، والغليون ذو القرن الملتوى يميل ناحية اليمين، عيناه شاخصتان إلى أعلى قليلا فوق الجدار. كانت الصورة داخل الاطار المذهب. نفث الدخان كثيفا فى وجه صاحب الجلالة، ثم انتبه فى توجس، وأدار رأسه إلى الناحية الأخرى حيث المروحة وأسدل جفنيه.

- لاأظن أنها كانت امرأة طبيعية.

- أتعنى انشغالها بهذا البحث.

- نعم، غالبا مايشير انشغال المرأة بأمور خارج البيت الى مرض نفسى.

- ماذا تعنى؟

- امرأة شابة تنطلق فى عمل بلاجدوى مثل جمع تماثيل قديمة؟! أليس ذلك دليل على المرض أو على الأقل الانحراف؟

- انحراف؟

- هذا الأزميل يكشف كل شئ.

- كيف؟

- المرأة كى تعوض عن رغباتها التى لم يتم اشباعها تستمتع بغرس رأس الأزميل فى الأرض وكأنه عضو الرجل.

انتفض مندوب البوليس فوق الكرسى. دار به حول نفسه عدة دورات

كالمروحة. تصلبت أصابعه فوق الألة الكاتبة وهو يدق كلمة «عضو الرجل». توقف عن الكتابه واستدار بحركة سريعة.

– المسألة تبدو خطيرة.

– أجل ولى عدة مؤلفات فى هذا المرض. فالمرأة منذ طفولتها تبحث عن هذا «العضو» دون جدوى، ومع اليأس تتحول هذه الرغبة الى رغبة أخرى.

– رغبة أخرى؟ مثل ماذا ؟

– مثل النظر الى نفسها فى المرآة، كنوع من الحب المهووس للذات.

– أعوذ بالله.

– وتميل المرأة الى العزلة والصمت وأحيانا الرغبة فى السرقة.

– السرقة؟

– سرقة التحف النادرة والتماثيل القديمة، وخاصة تماثيل الإلهات الإناث، فهى تنجذب إلى بنات جنسها دون الجنس الآخر ..

– أعوذ بالله!

– وتراودها فى الوقت ذاته رغبة ملحة فى الإختفاء.

– الاختفاء؟!

– بمعنى آخر انجذاب شديد نحو الانتحار أو الموت.

– ياحفيظ!

- واقع الأمر ان النساء الباحثات عن الحفريات يشعرن بلذة شديدة حين يحفرن الأرض، وينجذبن الى رأس الأزميل اكثر مما تجذبهن رأس الإلهة نفرتيتى، ومهما كانت محاولتهن فإنهن تعجزن عن تحويل عيونهن عن رأس الأزميل كأنما هو العضو المنشود ...

- كفى! كفى !

بلغ التوتر بمندوب البوليس أقصاه .. كف تماما عن التنفس. ثم بدأت أنفاسه تلهث. والكرسى يدور به دون توقف. ثبت الكرسى، وأمسك زجاجة «الكوريكتر» وبدأ يمسح كلمة «العضو» من جميع الأوراق. لكن الخبر تسرب الى الصحف رغم اللمبة الحمراء. بدأ الصحفيون يكتبون عن الموضوع بلا حياء. وكادت أخبار المرأة المختفية تحجب الأنظار عن الاحتفالات بعيد صاحب الجلالة.

فى اليوم التالى صدر الأمر الملكى : تحريم الإجازات على النسوة، وإذا خرجت المرأة فى إجازة محظور إيوائها أو التستر عليها.



ذلك الصباح من شهر سبتمبر هبطت امرأة فى ربيع الشباب إلى المركب. كانت تلف شعرها الأسود الغزير فى ضفيرتين طويلتين، تدور ان ثلاث مرات حول رأسها وتلتقيان فوق جبينها فى عقدة كبيرة. جسمها طويل نحيف داخل ثوب واسع الى ماتحت الركبتين. يطل من تحته سروال واسع طويل ينتهى برباط مشدود أعلى القدمين. من فوق كتفها تتدلى حقيبة لها

حزام جلدى طويل. تشد بيدها فوق الحزام، وتمضى فى طريقها بخطوات واسعة، عيناها الى أعلى، تبدو كالموشكة على الانطلاق نحو مراكب الشمس. رمقها ناظر المحطة بفضول طبيعى. عند البوابة رآها تمد يدها للحارس بتذكرة السفر. حملق فيها لحظة، ثم ردها اليها، وكانت هى قد انطلقت خارج المحطة. لم يكن فى حركتها شئ يثير الريبة، إلا ذلك الحماس غير المألوف بين النساء، وهى تتطلع نحو الشمس، بعينيها العاريتين من أى غطاء. وشئ يطل من حقيبتها يشبه رأس أزميل.

أمام المحطة كانت المركبات واقفة كالعادة فى انتظار الركاب وانطلقت المرأة نحو واحدة منها. ركبت بخطوات غير مترددة، واحتلت مقعدا فى المؤخرة.

بقيت المرأة فى المركبة حتى النهاية، حين هبط منها جميع الركاب هبطت هى الأخرى، وسارت على قدميها. بدت معالم الطبيعة مزيجا من الألوان الغريبة، متنافرة ومتداخلة. خضرة العشب، صفرة الصحراء، حمرة الصخور. زرقة السماء. بياض السحب.

واصلت السير بخطواتها الواسعة، تشد بيدها فوق الحزام المعلق فوق كتفها، كأنما تمضى بإرادتها أو بغير إرادتها نحو هدف معين.

ولم تعد هناك قرى أو مساحات من الأرض المزروعة. حقول متناثرة وأشجار شوكية. ثم تغيرت التربة فأصبحت صحراوية نوعا ما ترابها أسود ناعم تشوبه حمرة داكنة، كأنما غرق فى الدم ثم جف تحت الشمس. علق

بقدميها وهي تمشي. بين الحين والحين راحت كتل من أشجار النخيل أو البلح تلقى بظلالها على الأرض، وظهرت وسط الرمال كأنما بطريق الصدفة بقعة محددة سوداء.

تحت ظل جدار توقفت المرأة ربما للمرة الأولى منذ هبطت من المركبة. مسحت وجهها بكم ثوبها لتجفف العرق. راحت تحدق فيما حولها. خلعت عن كتفها الحزام الجلدى، وفتحت الحقيبة. أمسكت بالأزميل في يدها اليمنى. والحقيبة في يدها اليسرى ثم شرعت في السير من جديد، نافضة عن قدميها التراب، خبطت كعبيها في الأرض عدة خبطات، ولاحت من بعيد مساحة كبيرة من الماء الأسود تشبه البحيرة الراكدة.

ثم اتسع الأفق وراء جبل منخفض. ظهرت قرية صغيرة بيوتها سوداء من الطين أو مادة أخرى تشبه الطين. متلاصقة في كتلة واحدة. فوق السطح أكوام كالتلال السوداء وبراميل مقلوبة. الأزقة ضيقة مسدودة. بعض البيوت على هيئة اكواخ من الخشب أو الصفيح. ومساحة كبيرة من الأرض العراء.

في الأفق كانت هناك قمة جبل، ومن تحتها تمتد القرية تخترقها مواسير ضخمة كالأنابيب، غارقة فيما يشبه المياه السوداء، وآبار لها فوهات واسعة يتدفق منها سائل يشبه الزئبق له رائحة الجاز، امتزجت به رائحة البشر، وشئ أشبه بالسردين المملح أو الفسيخ، وكلاب ميتة في الطريق، صدمتها المركبات المسرعة في الليل.

انحدر الطريق ومعه المرأة. كانت تسير بخطواتها السريعة متجهة نحو

هدفها، حقيبتها معلقة بالحزام فوق كتفها. أطفال القرية يلعبون فى البركة أمام الجامع. رجال عجائز جلسوا القرفصاء على الأرض العراء. عكفوا على النظر إلى أصابع أقدامهم، ومن حين إلى حين يرفعون عيونهم الى السماء و يحدقون فى اللاشئ. طابور طويل من النسوة المختفيات تحت العباءات السوداء يسرن بخطوة بطيئة فوق رؤوسهن البراميل.

كفت النسوة عن الحركة، وهن يرقبن المرأة. لمعت عيونهن من خلال الثقوب الصغيرة. لكن المرأة مضت فى طريقها، الأزميل فى يدها ولاشئ يعنيها إلا البحث. توقفت لحظة تمسح العرق بكم ثوبها وتحملق حولها. كانت الأنابيب تلتوى وتمتد بلا نهاية، والطريق ينحدر الى البركة. أخرجت من حقيبتها خريطة صغيرة نظرت فيها طويلا ثم رفعت الى السماء عينين شبه غائمتين. فى تلك اللحظة مرت بها طفلة من القرية. كانت ترتدى العباءة السوداء ولاشئ يظهر منها إلا عينان صغيرتان. سألتها عن الطريق لكن الطفلة انتفضت وابتعدت مسرعة.

بدت الحيرة على وجهها، ونوع من الاضطراب. كان الأفق يتسع وبعض طيور تحلق فى الجو. حركة الأجنحة ومن خلفها زرقة السماء أعادت الى نفسها بعض الثقة. الطريق يبدو أمامها مأمونا، لكن الأرض تزداد بلولة وتلين تحت قدميها، والقرية بدت كأنما تغوص إلى أغوار البركة.

من مكانها حيث وقفت حملقت حولها. أى قرية هذى؟ حركت قدميها

لتواصل السير لكن عاصفة هبت فجأة كادت تقتلعها من الأرض، لولا أنها ثبتت قدميها، وأمسكت فى جدار راح يهتز تحت ثقل جسمها.

أفاقت على أصوات تشبه الغمغمة. رأت الطفلة واقفة من بعيد تتحدث إلى طفلة أخرى. تقرب كل منهما رأسها ثم تنظران ناحيتها. أرادت أن تنادى عليهما وتسألهما عن اسم القرية. زعقت بأعلى صوتها. رأتهما تستديران، وأدركت من ظهرهما المقوس أنهما امرأتان عجوزتان.

نظرت إلى الساعة فى يدها. كانت السابعة وعشر دقائق. ضربت الأرض بالأزميل، وخطر لها سؤال. أيمكن حقا أن تعيش الإلهات تحت سطح الأرض؟ ألا يكون ذلك مجرد خدعة بقصد استدراجها الى هذا المكان؟

أغمضت عينيها فيما يشبه النوم. رأت الغرفة المربعة الأركان العارية من الأثاث، والسرير من الخشب يتسع لاثنين يعلوه غطاء أصفر باهت. بقعة دم قديمة فوق الغطاء. رف عليه بعض كتب عن الحفريات، وتمثال صغير من الحجرللإله ذى الثدى الواحد، وصورة الإله إخناتون له ثديان بارزان وردفان كبيران.

من وراء دخان الغليون يرمقها رئيسها فى العمل. كان يؤمن بأن الإله الذكر يمكن أن يكون له ثدى أو ثديان. لم يكن يؤمن بوجود الإلهات. وإن وجدت واحدة فهى زوجة الإله وليست إلهه حقيقية.

زميلاتها وزملاؤها فى القسم كانوا يؤمنون بما يؤمن به رئيسهم. جاءوا إلى قسم الحفريات عن طريق اليأس. يمطون شفاههم حين ينطقون الكلمة.

«حفريات»، تجذبهم الموميات أكثر مما تجذبهم الكائنات الحية. عيونهم تتجه إلى اسفل كأنما إلى بطن الأرض. تكاد تكون مشيتهم واحدة. العنق يبدو ملتويا والجفن مسدل فوق العين. عظمة الأنف منكسة. الردفان سمينان متهدلان من طول الجلوس وراء المكتب.

رفعت عينيها إلى السماء. رأت النجوم والكواكب ثابتة فى مكانها القديم منذ كانت طفلة. خالتها كانت تشير بإصبعها إلى نجم بعيد لاتكاد تراه. هذا هو المريخ، وهذا هو عطارد، والمشترى، زحل. لكن هذه هى ست الكل الزهرة.



تعلقت عيناها بالنجمة. وفجأة بدأت الحركة. انطلقت الزهرة من مكانها وعبرت السماء. ذيلها من خلفها رفيع طويل. ثم بدأت النجوم تتباعد بعضها عن البعض، تجرى هنا وهناك ولها أشكال الحيوانات. كان هناك نجم يشبه الثور، وآخر يشبه الأسد، والحوت، والعقرب ..

الأرض أيضا بدأت تتحرك تحت قدميها. حملقت فيما حولها. كان رجل يمشى من بعيد بظهر محن، رأسه ملفوف بغطاء أبيض.

- أهو زلزال ياعم ؟

- لا، إنه الثور يحرك قرنيه، وينقل الأرض من قرن إلى قرن.

كان صوت الرجل واضحاً كأنما يتحدث مباشرة فى أذنيها، ومع ذلك بدا

كأنما يأتى من قاع بئر. كان يبتعد فى حركة المشى البطيئة، لاترى منه إلا الظهر المحنى. يختفى شيئا فشيئا داخل سحب كالشبورة.

صاحت بأعلى صوتها تنادى عليه، لكن صيحتها كانت تتبدد.

ثم رنت ضحكة مكتومة. إنها الطفلة العجوز واقفة داخل عباءتها. عيناها الصغيرتان تلمعان من داخل الثقبين.

- ليس الثور يا أختى.

- ما هو؟

استدارت الطفلة واختفت داخل غيمة من الغبار كالدخان. فى مكانها وقفت تثبت قدميها فى الأرض.أمسكت حزام الحقيبة وراحت تشد عليه. ليس أمامها إلا الثبات فى مواجهة هذه الحركة المجنونة.

رفعت عينيها الى الأفق. كانت المساحات السوداء تمتد أمامها كالصحراء اللانهائية، رمالها متحركة لونها أسود والهواء شديد الجفاف. سطح لسانها تشقق وعيناها تبحثان فى الظلمة عن قطرة ماء. لمحت شيئا يتحرك، حية صغيرة تشبه الحرباء، عينها تلمع، تزحف فوق بطنها وبشرتها سوداء، حركتها رشيقة، قفزاتها خفيفة مرحة، كأنما تبتهج بقدرتها على تغيير لونها.

تراخت قبضتها حول حزام الحقيبة. ربما لايكون الثبات هو المطلوب. تركت نفسها للريح. حركة لم يألفها جسمها أول الأمر. بدا ثقيلا. ثم أصبح

أقل وزنا، أغمضت عينيها فيما يشبه الاستسلام. إحساس جديد بدأ يتسرب اليها على استحياء. كان الجو حارا. مع كل خطوة يعلق غبار أسود بحذائها. تتوقف لحظة. تخبط كعبيها أحدهما فى الآخر. تفك الضفيرتين من حول رأسها. تنفضهما. تخبط الواحدة بالأخرى. تتطاير من حولها الذرات السوداء. تلتصق بأنفها وجبهتها كأنما تجذبها رائحة العرق.

جلست القرفصاء دون أن تلامس مؤخرتها الأرض،و لم تشأ أن تلوث ثوبها. فتحت الحقيبة وأخرجت الأزميل. ضربت الأرض عدة ضربات، لكن الرائحة كانت غير محتملة. وضعت المنديل فوق أنفها. عنقها يلتوى إلى أسفل. فى القاع البعيد كانت الأرض تتسع، والظلمة تزداد كثافة، وهى تمشى نحو القاع. من يراها يظن أنها لم تكن تمشى. ارتطمت يدها بجدار من الطين. يشبه جدران البيوت فى القرية. سمعت فى الداخل أصواتا. كانت واقفة تستند بيدها على الجدار. يدها الثانية تقبض على الأزميل، وأنفاسها تلهث.

انفتح باب فى الجدار. أحدث صوتا يشبه صرير الساقية. مفاصل حديدية صدئة أو طقطقة خشب قديم. وظهرت امرأة شابة داخل عباءة سوداء تحمل فوق رأسها برميلا ضخم الحجم، منتفخ البطن. يداها مشققتان. قدماها كبيرتان داخل خف جلدى. كعباها يطلان لونهما أسود. تلف رأسها بمنديل أسود مربوط فوق جبينها على شكل عقدة. حاملة فوق رأسها البرميل

بشكل مائل. مملوء حتى الحافة يوشك على السقوط، دون أن يسقط. تلوى وتحرك رأسها دون أن تمسكه بيدها، دون أن تسقط منه قطرة واحدة.

كانت المرأة تحملق الى الأزميل فى يدها. لم تر فى حياتها امرأة تحمل آلة حادة. تراجعت إلى الوراء خطوة.

- إنه أزميل.

- ماذا يا أختى؟

- أحفر به الأرض وأبحث عن الإلهات.

- ماذا ؟

- الإلهة سخمت مثلا.

- سخماط؟!

أصاب المرأة اضطراب. بدأ جسدها ينتفض. لكن البرميل كان ثابتا فى مكانه، متربعا فوق رأسها رابط الجأش.

- قليل من الماء أرجوكى.

- ماذا؟

- ماء . . . .ماء . . .

راحت تصرخ وهى تردد: ماء . . . ماء . . .والمرأة واقفة ترمقها بعينين متسعتين من خلال الثقبين. كأنما هى ترى قطعة من الغنم تمأمئ. هبت فى

تلك اللحظة عاصفة جديدة كادت تقتلعها من الأرض، والمرأة واقفة تهز رأسها والبرميل ثابت متربع فوق رأسها.

- مَن أنت؟

رأت الشك فى عينى المرأة. أخرجت من حقيبتها بطاقتها الشخصية، الاسم، والجنس، ولون العينيين، والمهنة. باحثة فى قسم الحفريات. حسنة السير والسلوك. متزوجة. بدون أطفال. تقاريرها السرية لاغبار عليها. سددت اقساط التأمينات والضرائب. ليس عليها ديون، وليس لها سوابق. لم تصدر ضدها أحكام حتى الآن.

حملقت المرأة فى البطاقة كأنما لا تعرف القراءة. تأملت صورتها المشبوكة بدبوس.

- لماذا لا تسترين وجهك؟ أليس عندك حياء؟!

أعادت اليها البطاقة واستدارت. مضت بخطوة بطيئة مبتعدة على امتداد المنخفض. تمصمص بشفتيها وتطرقع بالخف الجلدى. كعباها سودوان يحركان الغبار فى الجو. فوق ظهرها نتوء يشبه صنم الجمل. من حولها تجمعت النسوة فوق رؤوسهن البراميل. تقرب كل منهن رأسها من الأخرى. يدور الهمس بصوت كالغمغمة. نهضت واحدة منهن. بدت من بعيد كالطفلة. عادت بعد لحظة ومن حولها عدد من الرجال. يرتدون الجلاليب الواسعة. فوق رؤوسهم أغطية بيضاء.

ظلت أصوات النساء منخفضة لاتزيد عن الهمس. ارتفعت أصوات الرجال. كانوا يتكلمون فى نفس واحد. كل منهم يحرك ذراعيه فى الهواء. يضرب الأرض بقدميه. غبار كثيف يتصاعد. ثم توقفت الأصوات كلها فجأة. عم الصمت. لم تسمع فيه إلا نباح كلب من بعيد.استدارت لتمضى فى طريقها. أسرعت الخطى تشد بيدها فوق الحزام المعلق على كتفها. لكن الأصوات كانت تتبعها. واستوقفها رجل يلف حول عنقه كوفية سوداء. فوق وجهه التصقت ذرات سوداء كالنمش.

- إنت يا مَرهْ!

ارتطمت كلمة "مَرَهْ" بأذنيها مثل شفرة زجاج. تصلبت عضلات وجهها. كيف يمكن لرجل أن يستوقفها فى الطريق ويسبها. أدارت له ظهرها ومضت فى طريقها. تبعها وهو يضرب الأرض بقدميه. صوته لا يكف عن ترديد تلك الكلمة النابية.

مد ذراعه الطويلة كالعصا الخشبية وأمسك ذراعها. قرّب فمه من أذنها وراح يزعق: يا مَرَهْ ! رائحة نفاذة تدفقت من فمه. خليط من اللعاب الأسود يسيل من الزاوية بين الشفتين.

- مَن أنتِ؟

- أنا باحثة محترمة و . . . . .

- من أين أتيتِ؟!

استدارت وأشارت برأسها الى الطريق الذى جاءت منه. بدا مثل سرداب طويل مظلم، طمسته المياه السوداء كالطوفان. أغمضت عينيها ثم فتحتهما.

- خرجت فى إجازة و . . .

- لم نسمع هذا من قبل.

- يمكننى العودة.

- لا يوجد طريق فى هذا الوقت.

- أيمكننى تأجير غرفة حتى الصباح؟

- أنت وحدك؟

هز الرجل رأسة عدة مرات: لا يمكن. ابتعد عنها يضرب الأرض بقدميه.

فتحت الحقيبة وأخرجت الخريطة. هل أخطأت المكان؟ انحنى جسمها فوق الأرض. بدت لمن يراها من بعيد أنها مقبلة على النوم. لكنها استغرقت طويلا فى تحديد المكان. عثرت على بقعة حددتها بالقلم. أمسكت الأزميل وحفرت.

تدلت رأسها وهى تحفر فيما يشبه الإعياء. ربما كان المكان صحيحا وقد تكون واحدة من الإلهات مختفية. لكن الظلمة حالكة والذرات السوداء تتراقص أمام عينيها. أزاحت الطين ولمحت شيئا يشبه قرن بقرة. قبل أن تمتد ذراعها سمعت الأصوات من خلفها. طابور من الرجال يطل عليها.

يرتدون الجلاليب. رؤوسهم ملفوفة بغطاء ابيض. من خلفهم طابور من النسوة داخل العباءات السوداء. أخرجت واحدة من تحت العباءة ثديها العارى. أخذت تشد الحلمة السوداء بين إصبعها حتى اندفع من الثقب خرطوم رفيع أسود اللون. ثم أخرجت من تحت العباءة طفلا صغيرا، قبض بفكيه الصغيرين على الحلمة وراح يرضع بصوت مسموع.

أصوات الرجال بدأت تنخفض كأصوات النسوة. جلسوا القرفصاء على شكل حلقة. فى الوسط حجر كبير جلس عليه رئيسهم. فى اصبعه الصغير خاتم تلمع من فوق رأسه صورة لصاحب الجلالة. تحوطها اللمبات الملونة. ومكبر للصوت على شكل القمع.

– بمناسبة عيد صاحب الجلالة أمرنا بالصرف.

الصوت هو صوت جلالته. شفتاه تتحركان فى الصورة. فركوا عيونهم بأصبعهم. زوايا الجفون متآكلة يشوبها الاحمرار. يتبادلون النظرات. يرددون فى نفس واحد، «قادر على كل شئ»، ثم يدب الصمت. يدعك كل منهم زاوية عينه. يتأمل الذرات السوداء العالقة بطرف إصبعه. يمسحه فى جلبابه، ثم يدعك عينه الثانية.

غمغم صوت صاحب الجلالة من خلال القمع. كلماته متآكلة الحروف، لسانه معوج، ولم يفهم أحد ماذا يقول. هز رئيسهم رأسه علامة الإعجاب. هزوا رؤوسهم. ثم توقف رأسه عن الاهتزاز. توقفت رؤوسهم. نهض من فوق

مقعدة، فنهضوا. اختفى فى عتمه الليل واختفوا من خلفه، ومن خلفهم النسوة.

لم يبق إلا صورة صاحب الجلالة، معلقة فى السماء بلا أعمدة، ومن فوقها البوق، ورجل واحد يكنس الأرض، اقترب منها بخطوات بطيئة. كان هو الرجل ذو النمش، والكوفية السوداء. تمخط بصوت عال.

- لابد من إخلاء المكان.

- وأين أبيت؟

- تعالى معى.

قادها الى الطريق المنحدر. يسبقها بخطوة أو أكثر. كلما أسرعت لتمشى الى جواره ترمقها عيناه فتبطئ السير لتصبح فى المؤخرة. هبط المزلقان يلقى بنصفه الأعلى الى الأمام، ويده تهرش ظهره. .

كانت تتبعه فوق كتفها حزام الحقيبة، تمسكه بأصابعها كأنما يحميها من السقوط. فى يدها الثانية الأزميل، ينتفض بانتفاضة جسمها ويبدو فى الظلمة كأنما هو ينتفض وحده.

انحدر الطريق وازدادت الأرض سيولة. الرائحة النفاذة تشتد. قدماها تغوصان حتى الركبتين. شمر الرجل جلبابه وربطه حول وسطه. ثم قفز داخل مركب. قفزت وراءه فأهتز المركب. كادت تسقط لولا حركة من ذراعها استعادت بها توازنها.

بدا لها المشهد طبيعيا، لولا الرائحة النفاذة، والذرات السوداء المتطايرة تدخل أنفها وأذنيها، وتلتصق بزوايا جفونها. الظلمة تتراكم أمام عينيها كالتلال، والصمت. إلا صوت المجداف يخبط فى بحر أسود لانهائى.

بدأ الرجل يدعك عينيه وهو يغنى.

- يا واهب الحياة

- يا قابض الروح

- إرحمنا من الطوفان

- يا مفرج الكرب

عيناه وهو يغنى شاخصتان نحو الأفق. يحك زاوية عينه بطرف اصبعه ثم يقرب إصبعه من عينه. يتأمله طويلا قبل أن يمسحه فى جلبابه. ثم بدأ يهرش ظهره وتحت الإبط وما بين الفخذين. صوت غنائه يسرى فى الليل حزينا، إلا فى لحظات متقطعة، حين ينتفض كأنما بلذة مفاجئة.

أوقف المركب عند كتلة من الظلام تشبه الجدار. انحنى باتجاه الظلمة. تنحنح بصوت عال معلنا عن مجيئه. لم يسمع إلا نباح كلب. صاح وهو يدق على الباب.

- إفتح يا أخى.

من وراء الباب جاءت نحنحة رجل آخر. ومن أعماق الظلمة انفتح الباب.

اندفعت الرائحة تؤلم غشاء الأنف. ظهرت شعلة صغيرة تهتز فى يد كبيرة، مشعرة وصوت متحشرج يخرج من الحلق.

- ادخلى يا مَرَهْ.

لم تعد الكلمة تؤلمها. فى أذنيها ألم أشد. الذرات الدقيقة تتراكم داخل كل أذن. تتجمد مثل حصوة تحتك بالغشاء أو العصب.

ارتفع صوته قليلا.

- ادخلى يا مَرَهْ.

واقفه فى مكانها لا شئ فيها يتحرك إلا عنقها. يلتوى الى أعلى نحو السماء، تبحث عن الهواء، من فوق كتفها الحزام تشده كأنما تشد ذاكرتها من الظلمة. كيف جاءت الى هنا ؟

ارتفع صوته أكثر.

- ألا تسمعين الكلام؟

حركت قدميها ودخلت. اجتازت عتبه منخفضة مألوفة الشكل. لكن البيت كان يهتز تحت قدميها كأنما هو مركب. انغلق الباب من خلفها فاستدارت. لم يكن الرجل ذو النمش الأسود هناك، وسمعت صوت المجداف يتحرك مبتعدا. انخرط الرجل فى سعال متقطع ثم تمخط بصوت عال. تراجعت الى الوراء خطوة. بدت فى فزعها كأنما ترتد الى الطفولة، وانطلقت من فمها صرخة، والضوء شاحب لا تكاد ترى شيئا. دعكت بطرف اصبعها

عينها. الغرفة عارية من الأثاث والمقعد ثابت فى الأرض. ساورها الشك. ألم تغادر قط مكانها؟

- إخلعى ملابسك.

لم يعد صوته غريبا على أذنيها. صوت الريح يضرب النافذة. خيوط من السائل الأسود تزحف من تحت عقب الباب. قطرات سوداء كالمطر تتساقط من السقف.

لم تكن فى حقيقة الأمر نافذة. مجرد إلواح من الخشب. والأرض لم تكن أرضا، وإنما هى الألواح تئن تحت قدميها مثل القطط المريضة، تند عنها بلولة كالعرق يلتصق بكعب حذائها، أو بطن قدميها إذا خلعت الحذاء.

- الرائحة غير محتملة؟

وضعت المنديل فوق أنفها وأغمضت عينيها. صوته متحشرج بعيد، كأنما يأتى من العالم الآخر. جالس فوق مقعده الخشبى. لاترى منه إلا قدميه وركبتيه داخل المنامة. نصفه الأعلى يختفي وراء الصحيفة. حروف سوداء من الرصاص، السطر وراء السطر، مصبوبة فى خطوط أفقية دقيقة.

- مطلوب باحثين بقسم الحفريات.



دقت الطلب على الآلة الكاتبة. ملأت خانة الاسم والسن، والديانة وفى خانة الجنس دقت أربعة حروف «أنثى». رمقها رئيس القسم بعيون متسعة.

- هذا القسم لا يقبل إلا الذكور، فالعمل غير ملائم .. أعنى حفر الأرض..

- كانت خالتى تحفر الأرض، وأمى كانت أيضا تحفر الأرض، وتزرع و...

- الحفريات شئ آخر، أعنى البحث عن الآلهة فى بطن الارض.

- الآلهة فى السماء. أليس كذلك ؟

- لكن هناك آلهة أخرى، ألم تقرأى شيئا عن الحفريات؟!

انتبهت الى شئ يزحف تحت قدمها. اصبع ناعم طويل يشبه ذيل الثعبان. يلتوى وينثنى ويحفر لنفسه طريقا هابطا من السقف. سر سوب من السائل الأسود. تجمعت حوله جيوش من النمل والأبراص والسحالى، وصراصير تشبه الخنافس لها أجنحة ترفرف فيما يشبه المرح.

سمعت صوته من وراء الصحيفة. كان يكلم نفسه، أو يقرأ أحد المانشيتات بصوت مسموع. دبت بعض الحركة فى الغرفة الغارقة فى الظلمة. أشاعت بعض البهجة تلك الأجنحة الصغيرة، ترفرف حول ذؤابة الضوء. مددت ساقيها فوق مقعد منخفض. قدماها متورمتان من طول السير. حقيبتها فوق كتفها تتدلى من الحزام. والأزميل داخل الحقيبة بطبيعة الحال. عيناها تحملقان حولها تستكشف المكان. فوق الجدار الأسود رأتها مرة أخرى. السحلية السوداء أو الحرباء. رمقتها بعينين صغيرتين. أصبحت بينهما ألفة.

تنحنح الرجل بصوت مسموع. اختفت السحلية داخل الشق. لم تعرف كيف رآها من خلف الصحيفة. نصفه الأعلى كان مختفيا تماما. لا يظهر منه إلا قدميه وركبتيه داخل المنامة. ربما هى قرون الاستشعار، يتوجس لأى صداقة قد تنشأ بينها وبين كائن آخر.

- جهزى العشاء.

قالها بلهجة من أستاجر امرأة للطهى. لم تكن هناك خانة فى الطلب الذى دقته على الآلة. فى خانة العمل كتبت باحثة عن الإلهات.

- أنا جائع!

صاح بصوت عال، وهى جالسة ممدودة الساقين. قدماها ملتهبتان تسلخ عنهما الجلد، تكسوه طبقة سوداء.

فى المطبخ كانت النافذة مسدودة. ألواح خشبية مدقوقة بالمسامير، ورق الصحف مضغوط بين الشقوق، مكوم وراء الباب يمنع دخول السرسوب من تحت العقب، وصنبور الماء مسدود بورق الصحف.

وهى واقفة أمام الحوض أحست بالرجل خلفها. أنفاسه فوق مؤخرة عنقها. لم تعرف كيف تشعل الموقد. ناولها شئ يشبه المسدس. تضغط عليه بالإبهام فيطرقع والشرارة تنطلق. ضحكت كالطفلة.

أشياء صغيرة كانت تضحكها. تتبدد الظلمة ويلمع فى الأفق ضوء.

رأته يلوى عنقه الى أعلى بكبرياء. تابعت بعينيها نظرته حتى السقف. كان السرسوب الأسود يزحف.

– ما هذا ؟

– ألا تعرفين ما هذا ؟

– لا.

– إنه النفط.

– أيتسرب النفط من السقف؟!

– بالطبع، حين يرتفع المنسوب فى الأرض أو يهطل من السماء.

– أتمطره السماء أيضا ؟

– تُعطى السماء من تشاء بغير حساب.

فى المدرسة وهى طفلة عرفت أن النفط لا يوجد إلا فى بطن الأرض. عبر ملايين السنين يتوالد من الأجسام الميتة، تتحلل بسبب الحرارة، وكائنات صغيرة اسمها البكتريا، وذرات التراب والرمل، وغبار المعادن. كل ذلك يتحلل إلى قطرات دقيقة تشرب الماء، تُختزن فى طبقات كالأسفنج، تنساب اليها الرمال وصخور جيرية متشققة، تُحبس بين حبيباتها، وتخزِّنه فى الشقوق داخل طبقات عازلة تحول دون تسربه الى أعلى، وطبقة من المياه فى جوف الإرض، يطفو فوقها، بحول دون تسربه إلى أسفل. كالمصيدة تنغلق

عليه الأبواب من جميع الجهات تمنعه من الخروج الى سطح الأرض، الا اذا اهتزت بفعل زلزال أو بركان أو قنبلة تسقط فى الحرب.

أطبقت شفتيها فى صمت. كان عنقه لايزال ملويا إلى أعلى يخاطب السماء كأنما هي واحدة من الإلهات. رفعت رأسها فارتطم به من الخلف. كان واقفا وراءها، يحتك بها دونما حياء. إنكمشت داخل جسدها فى حرج. لم يكن فى عقد العمل خانة لهذه الأشياء. أشاع انكماشها فى نفسه ألثقة، فالتصق بها أكثر. أنفاسه تلفح عنقها من المؤخرة. ذراعه امتدت ودارت حول صدرها، ثم استقرت يده فوق النهد الأيسر. رأت أظافره سوداء تفوح منها رائحة النفط.

- ألا تأخذ حماما أولا؟

- ماذا؟

بدا عليه الغضب. لم يحدث من قبل أن بلغت امرأة هذه الجرأة. كادت يده ترتفع وتسقط فوق وجهها. ربما ارتفعت فعلا. ثم تراجع الى الخلف. أدركه الإعياء فجأة. أشار الى زجاجة صغيرة فوق رف خشبى. فتح فمه عن آخره حتى رأت اللهاة الحمراء تنتفض فى حلقه.

- أربع نقط.

سكبت فى حلقه أربعة قطرات. أغمض عينيه طويلا. ثم فتحهما. لعق شفته السفلى بطرف لسانه.

- أهو ماء؟

- لا ، نوع مقطّر من النفط يروى اكثر من الماء، ويطهر الأمعاء. افتحى فمك.

سكب فى فمها القطرة الأولى ثم الثانية. أرادت القطرة الثالثة والرابعة. تشبثت بالزجاجة تقبض عليها بأصابعها الخمس، لكنه شدها منها وخبأها.

- لك نقطتان فقط حسب القانون.

أطرقت برأسها. إرهاق أشبه بالاستغراق. كأنما سمعت عن هذا القانون من قبل. وسقطت فى النوم، رأت نفسها تستحم فى مياه دافئة. السماء زرقاء صافية، والحقول خضراء. فى أنفها رائحة الزرع. تجلس فوق الجسر عند الغروب تنتظر ظهور الأضواء.

فتحت عينيها على شئ يحرق تحت الجفن. كانت الغرفة تغرق فى الظلمة. ضوء خافت ينبعث من ذؤابة متهالكة. وهو جالس فى مكانه وراء الصحيفة المفتوحة. قدماه حافيتان فوق البلاط.

أخفت حقيبتها تحت أبطها. سارت تجر قدميها الى المطبخ.عادت وفى يدها كوب من الشاى الأسود. مد ذراعه وأمسك الكوب دون أن ينطق، وراح فيما يشبه النعاس وهو جالس. كانت الصحيفة متكورة فوق الأرض. فتحتها تقلب الصفحة وراء الصفحة.

- امرأة خرجت فى إجازة ولم تعد، محظور إيوائها أو التستر عليها حسب القانون.

علقت الحقيبة فوق كتفها بلا صوت. شدت الباب بحذر وخرجت. صوت الريح يعوى كصوت الذئاب الجائعة. قدماها تغوصان مع كل خطوة. لاتعرف السائل من اليابس. تتسند على الجدران كما كانت تفعل وهى طفلة، قبل أن تتعلم المشى، خالتها تمسك يدها.

- تاتا خطى العتبة.

- هيلا هوب هيلا.

- يا ستنا الطاهرة.

وهى طفلة لم تعرف من هى الست الطاهرة. ربما كانت مريم العذراء. فى ظلمة الليل كانت روحها ترفرف أحيانا فوق أسطح القرية. فيعود البصر الى بعض العيون العمياء، وتدب الحركة فى بعض السيقان الكسيحة. أو ربما كانت هى السيدة زينب. الوحيدة من الأنبياء القادرة على شفاء خالتها من الوجع.

- ماذا تقولين؟

- سأكون نبية . . لأشفى الناس من الأمراض.

- هل فقدت عقلك؟ لا يوجد بين الأنبياء إمراة واحدة!

صوته كان يرن فى أذنيها واضحا. يبدد أحلامها. صوت رجل. ربما هو

زوجها أو رئيسها فى العمل. فى امتحان الدخول كان جالسا وراء مكتبه. بين شفتيه الغليون الأسود يهتز وهو يسألها السؤال وراء السؤال:

– ماذا تعرفين عن «نمو» إلهة المياه الأولى؟

– نمو؟

– و«إنانا» إلهة الطبيعة والخصب؟

– إنانا؟

– و«سخمت» إلهة الموت؟

لم تكن تعرف أن هناك شئ أسمه إلهات. الأنبياء جميعهم رجال وليس بينهم امرأة واحدة. كيف إذن يكون بين الآلهه إناث؟ وأيهما أعلى درجة النبى أو الإله؟ أما إله الموت فقد كان إسمه عزرائيل بالمذكر وليس سخمت بالمؤنث.

تحت ضوء اللمبة كانت تقرأ. وهو جالس فى مكانه المعتاد. يختفى نصفه الأعلى وراء الصحيفة . .

– أتقرئين؟

لم يكن يظهر منه إلا القدمين والساقين. ركبتاه بارزتان مدببتان من تحت المنامة. أتكون عينيه فى ركبتيه؟ ما أن تفتح الكتاب وتقرأ حتى تراهما تهتزان،تتوجسان؟

– إتركى الكتاب.

- الامتحان غدا ولم أكمل القراءة، و . . . .

- أنا جعان.

نظرت للساعة فى يدها. التاسعة وعشردقائق. جهزت له الأكل منذ ساعة واحدة، كيف يجوع بهذه السرعة؟ وإن جاع فالوعاء فوق الموقد. والمطبخ على بعد ثلاثه خطوات. رأته جالسا يهز ركبتيه،يحرك قدميه فى الهواء. يطرقع أصابعه.

- عطشان.

لم يكن يكف عن الطلب. كالطفل، لا يستطيع أن يُطعِم نفسه، ولايسقى نفسه. ما أن يراها تفتح الكتاب حتى يصيح. كأنما الكتاب رجل آخر يأخذها منه.

تخفى الكتاب تحت الوسادة. تنتظر حتى ينام، ويغرق فى النوم. يتصاعد الشخير بذلك الإيقاع المنتظم. تفتح الكتاب وتقرأ. كانت هناك وصية من الإلهه الأم إلى ابنتها:

- لاتنسى أمك.

- إحمليها كما حملتك.

- حملتك فى بطنها طول السنة.

- أعطتك حياتها وماتت.

فى هدأة الليل يسرى الصوت فى أذنيها. لم تسمع صوت أمها إلا وهى

جنين فى الرحم. تراه يتقلب فى نومه كأنما يسمع الصوت. تنتصب شعيراته فى توجس. يفتح عينيه فجأة فتخفى الكتاب. ينقلب على الجنب الآخر ويعاود النوم. ترقد فى مكانها تنتظر. لاتعرف إن كان نائما أو متظاهرا بالنوم. أنفاسه لم ترتفع بعد، وإيقاع الشخير لم ينتظم.

- صاحية؟

تغمض عينيها وتطبق شفتيها. تترك أنفاسها تعلو وتهبط، ثم تسقط فى النوم. يتهاوى جسدها إلى أسفل كأنما سقط فى بئر.



كان كل شئ يغدو مبللا حتى أغطية الفراش. بلولة سوداء نفاذة الرائحة. رأته يجثو على يديه وقدمية. ثم مد ذراعه نحوها. راح يحدق فى وجهها دون أن يغير وضعه. شفتاه منفرجتان على نحو غير طبيعى. يكشف عن الشعر فوق صدره.

أدركت أنه سيمضى قدما فى تلك اللعبة. فانقبضت عضلاتها وأحكمت إغلاق جسدها. أطبقت شفتيها وتظاهرت بالنوم.

اشتد تدفق السائل الأسود بصوت كالشلال. ارتفع حتى ركبتيه وهو جالس. نهض بجسد ثقيل يتثاءب. يدعك عينيه. تمخط فى الحوض. أحضر من المطبخ مغرفة الأكل. بدأ يغرف من الأرض. ينحنى بجذعه الى أسفل، يملأ المغرفة، يرفعها بذراعيه، ومعهما نصفه الأعلى، ويفرغها فى البرميل. يملأ البرميل وراء البرميل دون توقف.

- المنسوب يرتفع بشكل مفزع!

- خير من عند الله.

- إنى أختنق.

- لا تقفى هكذا، اهبطى بركبتيك.

جعلها تبرك كالجمل. عصر خرقة بالية، ثم لفها على شكل دائرة. وضعها فوق رأسها. ثبتها بدقات متتابعة، كأنما يدق مسمارا فى جدار. إنثنى بنصفه الأعلى مثبتا قدميه فى الأرض. رفع البرميل بذراعيه الإثنتين ثم وضعه فوق رأسها. إلتوى عنقها تحت الثقل، وكاد البرميل يسقط. هبت الريح فأمالت البرميل إلى جانب. تركته مائلا وحركت قدميها، القدم وراء القدم. حركة السير العادية. الطريق أمامها كأنما مشت فيه من قبل. هذا الطابور من النسوة تعرفه، وهى واحدة من الطابور. يسرن بخطوة بطيئة ثابتة كالزمن. تزداد العاصفة والشلال يهدر. أجسادهن تهتز كالقشة فى مهب الريح. كل شئ يهتز، إلا البرميل فوق الرأس، يظل ثابتا فى مكانه، رابط الجأش.

كانت تعود بجسد منهك. تتكور فوق الأرض. ركبتاها تحت ذقنها. حقيبتها تحت رأسها. حلقها جاف ولسانها تشقق. تفتح عينيها فى الظلمة. تبحث عن الزجاجة. لم تكن فى أى مكان. تعود الى النوم، ثم تصحو على الصوت. كان قد اصطاد حيوانا يشبه الخروف أو الماعزة. ذبحها بالسكين. تدفق الدم كالنافورة. العينان تنظران نحوها. تستنجدان بها، وصوته يزأر.

- هيا، إطبخي!

- أنا لا آكل اللحم.

- ليس من الضروري أن تأكليه، عليك أن تطبخيه!

- لن أطبخه!

مد ذراعه الطويل بالسكين. رمقت النصل اللامع، فالتوى عنقها الى أسفل. انكمشت داخل جسدها تخفي رقبتها بيديها الإثنين.

جرت جسدا ثقيلا الى المطبخ، مسحت الدم حول العنق، أشعلت الموقد ووضعت الوعاء. تصاعد البخار حتى السقف. أحست به واقفا خلفها. يتشمم رائحة اللحم. يحتك بها من الوراء. غريزة الأكل عنده كانت تصحو وتوقظ معها الغرائز الأخرى. تركت جسدها له وراحت فى النوم. بينما هى نائمة شعرت بألم. يشبه وخز الإبرة. كان ضميرها يؤنبها. كيف أعطيته نفسى مقابل وجبة عشاء؟

فى الصباح هب تيار عنيف. تناهى اليها على متن الريح صوت يشبه المجداف. أرهفت السمع وقلبها يدق. سمعت صوت امرأة يشبه صوت خالتها.

تبدّد الصوت حين حرك الرجل جفونه. شدها الى أعلى وظهر النني الأسود محدقا فيها. أمسك خرقة بالية. ربما هى سروالها. أخذ يلويه بين

يديه كأنما يعصره. جعله على شكل حزام وضعه فوق رأسها. جعلها تثنى جذعها، ثم رفع البرميل بيد واحدة.

- إنه ثقيل جدا! سوف يحطم عنقى.

صوتها يرتد اليها، كأنما هى تكلم نفسها. سارت به فى الطريق نحو الشركة. كالنائمة فى حلم. ربما لهذا السبب كان جسمها قويا، استطاعت أن تحمله دون عناء، بل أحست بنوع من الخفة كما يحدث فى الأحلام. لكن قلبها كان ثقيلا. هذا العمل ترفضه بقرة تحترم نفسها. ربما لا يقبله إلا نوع منقرض من الحمير. والبرميل أيضا من النوع المنقرض له أذنان كبيرتان، وبطن منتفخ بالحبل كالإله ذى الثدى الواحد.

ترددت بعض الأصوات من بعيد. صرخات خافتة ذات ايقاع واحد. أعقبها صوت كالغمغمة، وضحكات مكتومة ثم الصمت.

بدا لها أنها تمشى دون أن تتقدم خطوة واحدة. واقفة حيث كانت. لايفصلها عن عتبة الدار إلا خطوتين. كان الباب مفتوحا وهو جالس فى مقعده وراء الصحيفة.

- العاصفة مستمرة.

- يمكنك الانتظار.

- فى هذا الوضع؟

- حين يزحف النفط فلا شئ يقف فى طريقه، وعليك التعامل معه نهارا حين تسطع الشمس ويجف.

- وهذا البرميل يسخن رأسي!

- لابد من الانتظار لابد!

قال «لابد» وهو ينظر إلى أعلى. دارت سحابة رمادية عند الخط الفاصل بين السماء والأرض.

- النفط يشرب بخار الماء فى الجو، وحين تتبدد السحب بواسطة الشمس يحدث الجفاف.

- الجفاف؟

- نعم، وينحسر السائل متحولا الى صلب، ويمكنك السير بسهولة دون أن تغوص قدميك، ويمكن أيضا أن تسير فوقه الدبابات.

حين قال «الدبابات» كست عينيه لمعه، تشبه الدموع. ربما أخذوه إلى الحرب. ستصبح مساحته فوق الفراش خالية، وتكف عن الطبخ. شدت عضلات عنقها تحت ثقل البرميل. ضربت الأرض بقدميها.

كان الرجل منشغلا بالتطلع الى الطريق. ظهرت بشائر الموكب الكبير. صف من حملة الطبول يدقون النشيد الوطني. سرب من الدراجات البخارية، والألعاب النارية. موظفو البلاط داخل سيارات سوداء طويلة من خلفهم الصحفيون. دبابة ضخمة يطل منها صاحب الجلالة يلوح بيديه كأنما

للجماهير. إلى جواره رئيس الشركة يرفع القبعة علامة التحية.

كان الطريق خاليا أمامها وهى تسير حين لسعتها العصا الخيرزان فوق ردفيها.

- إنحنى بسرعة!

لم تكن تعرف بعد كيف تؤدى التحية. انحنت الى الأمام وثنت جذعها الى الخلف. أصبحت مثل جمل يبرك. بدأ الرجل يعلمها الأنشودة. ترددت نغمة صوته هادئة شبه موسيقية. مع كل مقطع يجفف عرقه بكم جلبابه.

- أهى أنشودة وطنية؟

- نعم، فنحن هنا نتبع المبدأ: أنا أحب وطنى.

- أهو وطنك؟

- أمى دفنت هنا، وحيث تدفن الأم يكون الوطن.

قال «الوطن» وأطرق الى الأرض. جعل جفونه تنسدل فوق عينه كأنما يخفى الدموع. لم يكن يذكر أمه إلا حين يتهدده الموت. بين يديه ورقة صغيرة مختومة بوجه صاحب الجلالة، والاستدعاء الفورى.

رقدت مفتوحة العينين ترهف السمع. أحست به يدخل الى جوارها فى الفراش. أعطى وجهه للحائط. مدت ذراعها وربتت على عنقه من الخلف.

- لا تذهب فليس لك إلا مقبرة أمك.

- مَن لا يذهب يقُتل.

- ومَن يذهب يقُتل.

- لامفر من الموت.

- إذن نموت بإرادتنا.

قالتها بلا صوت وهى تخرج من الفراش. علقت حقيبتها فوق كتفها وأمسكت الأزميل. سارت بخطوة سريعة تطبق عينيها فى مواجهة العاصفة. قدماها تغوصان فى المياه السوداء حتى الركبتين. بدت الحركة مستحيلة. توقفت تشق بعينيها الظلمة وأذناها مرهفتان. كانت الأصوات خافتة أول الأمر. مثل حفيف الهواء أو هفهفة الجلاليب. تأتى من أسفل المنحدر حيث بيوت القرية، وتعلو بالتدريج. تشبه إيقاع الدفوف ودقات الطبل. رأت إمرأة تدور حول نفسها فوق قدم واحدة. من حولها النسوة على شكل دائرة. نافشات شعورهن. أسنانهم تصطك،باسطات أذرعهن. يخبطن الأرض بأقدامهن. يدرن حول أنفسهم مع دورة الأرض. ينشدن فى نفس واحد.

- ياستنا الطاهرة.

- خففى عنا الأثقال.

المرأة فى الوسط طويلة، رأسها مربوط بمنديل أسود. تشبه خالتها، تدب الأرض بقدميها. ترفع عينيها إلى السماء كأنما تناجى الإلهة الأم. ينتفض جسمهامع كل دورة. تزداد حركتها سرعة وخفة. وفى قمة الأنتفاضة الأخيرة

يخف جسمها كأنما يتلاشى. يتوقف الزمن ويدب الصمت. ثم تشع الحركة من جديد. تفيض نحو المحيط. وأجساد النسوة تنتفض.

- يا ستنا الطاهرة.

- نجينا من الطوفان.

كأنما هى أنشودة قديمة كانت تغنيها البنات فى المدرسة. انفرجت شفتاها وبدأت تهمس بالأغنية. لكن الكلمات تجمدت فوق شفتيها، وانشقت الظلمةعن كشافات الضوء. أغمضت عينيها ولم تسمع إلا نباح كلاب، وعجلات من حديد تدك الأرض. اختفت النسوة يخفين شعورهن تحت المناديل السوداء. لم تبق إلا المرأة الطويلة التى كانت فى الوسط. حوطها الرجال وحملوها الى العربة. صرخة واحدة ثم دب الصمت.

لم تعرف كيف عادت الى الدار. جفونها كانت ملتصقة. تدعك زواياها بطرف إصبعها. ترى الذرات السوداء كالضباب، ومن حولها يتدفق الشلال. الرائحة النفاذة فى أنفها تعيدها الى الواقع. كل شئ يبدو كالحلم. الحركة الوحيدة المؤكدة هى حركة النفط. حركة غريبة كأنما هي النقيض لأى حركة أخرى.

كان الرجل قد عاد من الحرب بذراع واحدة. فى الصباح خرج يملأ البراميل. ذراعه حين يرفعها تبدو رفيعة ناحلة. كأنما فقدت نصف وزنها. تهتز تحت الريح. ترتفع وتهبط فى حركة لانهائية. كمن ينزح الماء من البحر.

- عبث ! عبث !

قالت بصوت غير مسموع، وانثنى عنقها تحت الثقل. حركة ذراعه وهو ينزح النفط تشبه حركة عنقها وهى تحمل البرميل. توقفت فى مكانها كالحصان الجامح. ثبتت قدميها فى الأرض. لكن التوقف بدا مستحيلا. كان النفط يتدفق وله شكل السائل. يمكن للأجسام الخفيفة أن تطفو عليه. إذا خف جسمها يمكنها السباحة. لكنها لم تتعلم كيف تطفو فوق الماء. قبل أن تنزل البحر كان عليها أن تخلع ملابسها. ولم يكن للنسوة أن يخلعن الملابس.

أغمضت عينيها دون أن تعرف الوقت. نظرت الى الساعة فى يدها وجفونها مغلقة. ثم تذكرت أنه لايمكن أن تعرف الزمن دون أن تفتح عينيها. شدت جفونها فانفتحت نصف عين. كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق. فى الأفق شعاع خافت لم تعرف إن كان الفجر أو الغروب.

بدأت فى النهوض من الفراش. قبل أن تتحرك أرادت أن تتأكد أن الرجل غارق فى النوم. راحت تنقل القدم وراء القدم بلا صوت. انقلب الرجل على الجنب الآخر وغاب فى النوم. تأملته طويلا. متكور حول نفسه مثل الطفل اليتيم. مستسلم للنوم فيما يشبه اليأس. ثنت جذعها الى الأمام كأنما ستطبع فوق جبينه قبلة وداع. ماذا يقول عنها حين يصحو فلا يجدها؟ ضميرها لايزال حيا أو هكذا تصورت. لن تسبب لها قبلة الوداع أى أذى على أى حال.

فتحت الباب وخرجت. تقدمت بضع خطوات وبدأت الأرض تلين. قدماها

تغوصان حتى الركبتين. نجحت فى إخراج ساقها اليمنى ثم اليسرى. ثم عادت أدراجها تلهث.

كان الرجل جالسا مطرقا فيما يشبه الحزن. امتلأت عيناها بحنان له شكل الدموع.

- حاولت الهرب لكنى لا أستطيع الحركة.

ظل الرجل صامتا لاشئ فيه يتحرك.

- لن أستطيع البقاء هنا!

تصلبت واقفة وصوتها اختنق. اكتسب صمت الرجل وإطراقه رأسه معنى مخيفا. هل ارتبط مصيرها بمصيره الى الأبد؟

كانت الشمس قد ارتفعت فى السماء. تلتهب أشعتها بلون أحمر. اشتعلت بعض أطراف البركة بالنار. تصاعد الدخان يحجب السماء وقرص الشمس. رفع رأسه وهو يفرك عينيه.

- هذا الدخان نعمة من الله فهو يخفف الحرارة.

لم يعد صوته يثير فى جسدها موجات الغضب. ارتسم فوق وجهها تعبير يائس. كانت واقفة حافية القدمين رأسها يتدلى فوق صدرها. عظام جسمها تهدلت فى استسلام وحزام الحقيبة يتدلى فوق كتفها.

- نعم، المقاومة لا معنى لها.

صوتها متهالك النبرة. تكاد لاتسمعه. ولم يكن للرجل أيضا أن

يسمعها. كان مطرقا برأسه، وفى إطراقته شئ إنسانى. عاطفة ما تربطها به. ليست هى الحب عن يقين.

انزلقت قدميه فجأة وسقط فوق وجهه. ساعدته فى النهوض تنفض الغبار عنه، لكنه دفعها بعيداً، وعضلات وجهه تتقلص.

- لولا وقوفك هكذا ما وقعت.

- قدمك انزلقت.

- ليست قدمى!

- إذا لم تكن قدمك فماذا تكون؟

- أنت! وقوفك هكذا فى طريقى.

كانت واقفة بعيدة عنه. لايمكن مهما حدث أن تكون سبب وقوعه، لكنه كان عاجزا عن إدراك سبب آخر. كان يؤمن بهذا المبدأ:

- إذا أصابه شر فهو من المرأة، وإن أصابه خير فمن نفسه.

لم تفتح فمها بكلمة واحدة. أمسكت رأسها بيديها. عليها أن تتظاهر بأن قدمه لم تنزلق، وأنها السبب فى وقوعه. أن تعتذر عن خطئها وتطلب منه المغفرة.

تكورت عند قدميه. عيناها تتطلعان إليه وهو واقف. كفت عن الحركة تماما. تظاهرت بالموت لحظة. ثم أفاقت. كان الشلال يتدفق، يغرق كل شئ. لكن أهل القرية يسيرون فى طريقهم كأنما لايحدث شئ. أصوات باعة

الصحف تتصاعد. وهو واقف بلا صوت. الصمت يؤكد أن كل شئ واضح دونما كلام. البرميل أمامها والبركة خلفها ولاشئ آخر.

تهالك جسمها فوق الأرض. ربطت المنديل حول رأسها وأجهشت بالبكاء. انهمرت الدموع تحرق زوايا الجفون الملتهبة. تذوب فى الغبار العالق برموشها. تهبط فوق خديها كالخيوط السوداء.

حركت رأسها ناحية الرجل. كان واقفا فى مكانه. خلع قميصه وكشف عن صدره. راح يداعب بأصابعه كتل الشعر الملتصق بعضه البعض. فى جسده العارى شئ غير إنسانى. لم يكن فى مقدورها أن تضع رأسها فوق هذا الصدر. مربع عريض ومغلق كالصندوق. لاحت لها فكرة أن تفتحه بالأزميل. لكن يدها لم تتحرك من مكانها. كانت الفكرة خيالا يروح فى رأسها ويجئ.

مدت يدها لتمسك الأزميل. فى تلك اللحظة أصابها ألم حاد فى الصدر. كأنما قطعة متجمدة من النفط دخلت مع الهواء الى الرئة.

أطلقت الصرخة فوثب فوق قدميه. ظل واقفا مترددا بعض الشئ متهدل الملامح. لم يكن ثمة أمل فى قدرته على إزالة الألم. لكنه كان موجودا. فى وجوده شئ ما. أو فى الحركة التى وثب بها فوق قدميه. أو فى ملامحه رغم تهدلها. أو نظرة الفزع فى عينيه. كان هناك شئ ما يخفف الألم.

استطاعت أن تحرك قدميها نحوه بضع خطوات. يدها فوق صدرها تدوس

على الألم. اقتربت منه فلم يعد بينها وبينه إلا خطوة واحدة. لم يسبق فى حياتها أن شاهدت وجه رجل بمثل هذا اليأس.

رفعت عينيها الى السماء. كانت الشمس تغرب، والضوء انطفأ. أتت بحركة انحناء مفاجئة كأنما ستنام. التوى عنقها بزاوية حادة الى الأمام. أفزعتها الحركة فانتفضت واقفة. أمسكت الحزام الجلدى فوق كتفها وشدته بقوة. انزلقت الحقيبة من فوق كتفها وسقطت الى الأرض. انطلق الأزميل خارجا منها بحركة مباغتة.

هبت نسمة هواء طرية. فتحت أزرار ثوبها تتلقى الطراوة فوق بشرتها العارية. كان للهواء ملمس منعش، أعاد اليها شيئا من سعادتها الطفولية. لم تكن كل طفولتها أحزانا. كانت هناك بعض لحظات سعادة. حين كانت تجلس فوق الجسر، عند الغروب. رأته ينظر اليها. يركز النظر الى صدرها العارى. لم يكن بها أى رغبة لإغوائه. كانت تريد الهواء فحسب، يرطب بشرتها الملتهبة، ويجفف العرق.

كان عريها طبيعيا تحت وطأة الحر. لكنه ظل يحملق فى صدرها كأنما كشفته عمدا. مدت ذراعها لتغلق الثوب فلم تمتد ذراعها. أغمضت عينيها فى إعياء. أجل يمكن لها أن تهرب. ألم تهرب من قبل مرة؟ ألم تصنع ثغرة فى الجدار تسللت منها وخرجت فى إجازة؟

تلفتت حولها. لم تكن هناك جدران أربعة تحوطها. مجرد مساحات ممدودة من السائل. بركة أو بحيرة أمواجها سوداء. يمكن العثور على

قارب. أو تصنع لنفسها مركبا من الجريد. فى طفولتها صنعت سفينة صغيرة من زعف النخيل. وصنعت أيضا طائرة بجناحين من ورق الشجر.

بدأت تشد جسمها وتنهض. حركت قدميها فى الاتجاه الآخر بعيدا عن الرجل.

ابتعدت بضع خطوات. رأته عن بعد أكثر إنسانية. ينظر اليها بعينين أكثر رقة. عيناها تنجذبان نحوه. يمكنه أن ينادى عليها لو أراد. لكنه صامت، وفى صمته شئ غير مستقيم.

لم تسير إلا بضع خطوات وعادت. كان الرجل قد دخل الى الدار. رأته مستلقيا فوق ظهره يقطر فى فمه من الزجاجة. بطرف لسانه مسح قطرة سقطت فوق شفته العليا. تطلع حوله كأنما لم يتوقع مجيئها.

- أنت أنانى، أليس كذلك؟

- نعم، ولكنى أفضل من رجال كثيرين.

- هذا أكيد.

- غدا سأعطيك نصيبك، حين يصرفون المنحة.

- غدا لن اكون هنا.

- ماذا تقولين؟

- أرجوك، ساعدنى لأعود، فهناك زوجى ينتظرنى. قد تساوره الشكوك، وأيضا رئيسى فى العمل لا يقل عن زوجى تشككا، وقد خرجت

فى إجازة، وهذا أمر يثير الشكوك، ولكن لم يكن يشغلنى شئ، إلا البحث عن الإلهات، ولعلك سمعت عن الإلهة سخمت.

- سخمط؟!

مط شفتيه الى الأمام، وهو ينطق الكلمة. إنقلبت شفته السفلى الى الخارج، وقلب حرف التاء الى الطاء.

- ألا تعرف شيئا عن الحفريات؟

- فى عيد صاحب الجلالة يأمرون بالصرف.

- صرف ماذا؟

- الزجاجات.

- لم أعد أريد شيئا!

- ما المشكلة إذن؟

- لا أفهم لماذا لاتطلق سراحى؟

- سراحك؟

- نعم، فأنا مثلك إنسانة ولى حقوق.

- ماذا؟

- حقوق المرأة! ألا تعرفها؟!

- هذا شئ لم نسمع به، وعندنا قانون حقوق الإنسان فقط.

نكست عينيها. تنهدت بلا صوت. تهاوت ملامحها وتهدلت كتفاها. لم تبذل محاولة للرد. بدا لو كان الكلام بلا معنى.

غاب هو الآخر فى صمت طويل. أطرق برأسه كأنما يتطلع الى قدميه. أو ربما سقط فى النعاس. ثم رفع رأسه، عيناه تنظران اليها.

– لماذا لاتريدين البقاء هنا؟

– ولماذا تريد البقاء هنا؟

– عملى هنا.

– أتسمى هذه السخرة عملا؟

– هناك طابور طويل ينتظر بلهفة أن يخلو مكانى.

رفع ذراعه وأشار الى خط أسود فى الأفق. تابعت عيناها حركة إصبعه. كان الخط على شكل قوس منحن، يختفى وراء سحابة قاتمة، تتبدد قليلا تحت ضوء الشمس. يبدو الخط متحركا، على شكل نقط سوداء، آلاف النقط، تظهر على شكل رؤوس متلاصقة، منحنية الى أسفل، يسيرون بحركة بطيئة تشبه الزحف، يجرون أقدامهم جرا، يتقدمون خطوة وراء خطوة بظهور محنية. رجال لهم شوارب مفتولة، ونساء رؤوسهن مربوطة بلا وجوه. تهب العاصفة وسحابة جديدة تظهر. يختفون تماما عن الأعين. لايبدو لهم أثر، إلا ذلك الخط الأسود يتبدى فى الأفق على شكل القوس.

حركت عينيها ناحية الرجل. أمسك فأسا وراح يضرب الأرض. يملأ

البراميل واحدا وراء الآخر. ظهره كان ناحيتها. تسللت على أطراف أصابعها. يمكنها أن تبتعد قليلا وتهرب. ربما تنجح فى الهرب قبل أن يستدير اليها.

لمحت الرغيف فوق لوح الخشب. أحست آلام الجوع فجأة. خلعت الحقيبة عن كتفها ومدت ذراعها. قضمت بأسنانها قطعة خبز. تلتها بقضمة ثانية، وثالثة. رآها الرجل وهى تأكل.

- كيف تأكلين طعامى ثم ترفضين الخضوع لطاعتى؟

- أهو طعامك؟

- بالطبع.

- أنا لا آكل من عرقك. أنا أعرق مثلك؟

- مثلى؟

- نعم مثلا، ألا أحمل البراميل كل يوم الى الشركة؟

- الشركة؟!

رنت الكلمة فى أذنيها غريبة. كلمة غامضة. الشركة. ماهى؟ مَن هم الشركاء فى هذه الشركة؟ لمن يبيعون البراميل؟ كم يدفعون لها فى اليوم؟ هل يأخذ الرجل أجرها؟ منذ جاءت لم تقبض شيئا. لم تمسك بين يديها شيئا من النقود.

غامت الدنيا فى عينيها. حركت رأسها ناحية الرجل. بدأ يضرب الأرض

بالفأس، ضربة وراء ضربة. حركة ثقيلة بطيئة. ثم يلقى الفأس جانبا. يتثاءب. يمسح عرقه بكم جلبابه. يملأ القفة حتى الحافة. يرفعها على مهل بحركة متثاقلة، ثم يفرغها فى البرميل. يطقطق البرميل بصوت عال.

- المرأة لايصح أن تعمل من أجل النقود.

- ولماذا تعمل؟

- من أجل هدف أكبر.

بدا الكلام منطقيا. هناك هدف آخر لحياتها. من أجل الهدف الأكبر يمكنها أن تخضع لهدف أصغر. أحست بالارتياح لهذه الفكرة.

رفعت البرميل بذراع واحدة، ووضعته فوق رأسها. التوت عضلات عنقها تحت الثقل. لكنها عادت واعتدلت. كان النفط المتجمد على قدر كبير من اللزوجة. يرتج داخل بطن البرميل ومن الفوهة يتصاعد شئ كالبخار.

تقدمت فى طريقها نحو الشركة. انعكس خيالها فوق سطح البركة. بدت والبرميل فوق رأسها كأنما هى الإلهة حتحور تحمل قرص الشمس بين قرنيها.

شدت عضلات عنقها بما يشبه الكبرياء. من قعر البرميل كانت السخونة تنفذ مثل الشمس. سارت بخطواتها الثابتة لا تأبه لشئ.

بدت الشركة من بعيد كبقعة سوداء فى مساحة أكثر سوادا. قطعة من

الأرض مرتفعة فى السماء على شكل مدخنة. تقذف اللهب وذرات سوداء تبدو تحت لهيب الشمس حمراء.

ربما ولدت هنا وليست لديها حياة أخرى. إلتوى عنقها بحركة مفاجئة وكاد البرميل يسقط. رفعت ذراعها وأمسكته بحركة سريعة.

كانت الشركة تبتعد كلما هي اقتربت. غابت الشمس وبدأ الليل يزحف. أتت بحركة إنحناء مفاجئة كأنما ستنام. منذ الطفولة لم تحمل شيئا فوق رأسها. أرسلتها خالتها الى المدرسة. كانت تربط المنديل وتلفه حول جبينها ثلاث مرات، وتقسم بالسيدة الطاهرة ألا تحمل بنت أختها شيئا فوق رأسها.

رفعت البرميل من فوق رأسها وحملته فوق ظهرها. ربما يكون هذا الوضع أفضل. إذا تسربت السخونة إلى الظهر فلا شئ هناك إلا العظم، أما سخونة الرأس فهى تذيب العقل.

- ألهذا السبب تحمل الحمير فوق ظهرها وليس فوق رؤوسها.

أدهشتها الفكرة. أصبح ذهنها أكثر نشاطا. بدت لها الحمير أكثر ذكاء من النسوة. أدركت أيضا لماذا يرفض الرجال أن يحملوا فوق رؤوسهم. أزاحت البرميل قليلا أسفل ظهرها، فأصبح أقل وزنا. بدأ الهواء المنعش يدخل صدرها ببطء. تحرر رأسها من الثقل، طرأت لها فكرة جديدة. كانت دهشتها تزداد كلما أوغلت فى الفكرة. بدأ جسدها يرتعد. موجة من التمرد تغزوها على شكل الرعشة.

مسحت العرق عن جبينها بكفها. أمعنت النظر الى حياتها. ما الذى يعجزها؟ فى طفولتها ماذا أرادت أن تكون؟ تساقط جسدها من الإعياء. كانت تريد أن تكون نبية مثل السيدة الطاهرة، بمقدورها أن تعيد الحركة الى السيقان الكسيحة، والبصر الى العيون المريضة.

- امرأة نبية؟! لم نسمع عن هذا من قبل!

- ورثت الجنون عن خالتها.

- ركبها عفريت.

أغمضت عينيها وراحت في النوم. كانت تقاوم اليأس بالسقوط فى النوم. يسترد عقلها بعض الحماس. يزحف الأمل الى جسدها مثل دودة الأرض. نظرت الى الساعة فوق معصمها. الوقت يمضى وهى راقدة. هبت واقفة فوق قدميها. مدت ذراعها وقبضت على الأزميل.

كانت الأرض تتغير مع تغير النفط. وكان النفط يتغير مع حركة الشمس والريح. وأنفاسها فى صدرها تعلو وتهبط مع ارتفاع درجات الأمل واليأس. واندفاعة الدم من القلب الى الذراعين، ومن الذراعين الى الأزميل، ومن الأزميل إلى الأرض، ومن الأرض الى النفط والريح والشمس.

بدا كل شئ يدور فى توازن عجيب كأنما هو ناموس الكون. إذا تغير النفط فكل شئ من حولها يتغير. الأرض والسماء وجسدها أيضا يتغير. ربما هى قوة للنفط غير معقولة. أو طبيعة أخرى غير مألوفة. فالنفط

المتجمد ليس هو النفط السائل، وطين النفط الراسب فى القاع له قوام آخر، ومقاومة مختلفة تماما. وفى بطن الأرض يتغير كل شئ حتى الرطوبة. وفى رأسها تدور الفكرة وراء الفكرة، والأزميل يضرب الأرض الضربة وراء الضربة. دون جدوى. لا أثر لشئ وكل شئ ينتهى إلى لاشئ.

حين عادت رأت الرجل راقدا فوق ظهره وعيناه مفتوحتان. فى يده سجارة مشتعلة. حرك رأسه قليلا ناحيتها وسأل. هل قلت شيئا ؟ لم تكن تكلمتْ. كانت ترمق الشعلة فى يده. ربما كان الحريق هو الخلاص.

- ماذا قلت؟

- لاشئ.

قالت «لاشئ» برنة خضوع. غرق المكان فى الصمت. إذ اشتعلت ذرة واحدة فسوف تلتهم النار كل شئ. لم تجذبها فكرة الموت حرقا. حركت قدميها ناحية الباب. شدت المقبض بذراعيها الإثنتين. لم ينفتح. تشرّب بالبلولة والتصق بالأرض.

أطفأ الرجل السيجارة فى كعب حذائه. ثم أمسك الصحيفة واختفى وراءها. رأت صورة صاحب الجلالة والمانشيت الكبير.

- بمناسبة العيد أمر جلالته بغسل تمثال النصر.

أغمضت عينيها، ثم فتحتهما. رأت شيئا يجرى يشبه الثعبان، رفع ذيله

حين رآها، كأنما يؤدى التحية. هزت رأسها ترد التحية. نفخ الهواء بصوت مسموع. أدركت أنه يقول شيئا بلغة أخرى. هزت رأسها علامة الفهم.

تحولت الاهتزازة إلى حركة مباغتة من يدها، وشدت الصحيفة من فوق رأس الرجل.

- لايمكن لواحد من البشر أن يحتمل هذا، وأنت تتمدد فوق الكرسى تدخن وتقرأ كأنما لا يوجد خلل فى العالم!

- أى خلل؟

- هذا الخلل! ألا تراه ؟

تابعت عيناه إصبعها وهى تشير الى أعلى فى حركة دائرية.

كان تمثال النصر من حجر السيج. تعلوه طبقة سوداء من غبار النفط. يبدو وجهه قبل الغسيل أسودا تطفو عليه بقع الزيت.

ولم يكن لها أن تتخلف عن حضور الاحتفال. صدر الأمر مكتوبا على الآلة، ومختوما بالصقر. على النسوة أن يقمن بالغسيل. وعلى الرجال الوقوف فى صفوف منتظمة، وأداء التحية.

لم تعرف كم من الزمن مضى وهى تغسل. بدا لها التمثال طيعا تحت يديها. أنفاسها كانت تتلاحق مع حركة ذراعيها، والخفقات تحت ضلوعها، ودقات الساعة فوق معصمها. بدت حركة الغسيل لا نهائية أو ربما حركة لا إرادية، أو محاولة للهروب من حركة أخرى.

بعد الغسيل أصبح الوجه أبيض اللون، كوجه صاحب الجلالة. مملوءا باللحم، وصدره عريض، يعلوه نهدان بارزان كصدر الإلة إخناتون.

استمرت حملقتها فى التمثال طويلا. هبت ريح من الجنوب ملأت عينيها بذرات النفط. اشتد الألم كالحرق فأغلقت جفونها. من ورائها سمعت الصوت، ويد الرجل تكاد تلمسها.

فتحت عينيها نصف فتحة. لم يكن هو الرجل. رأت امرأة واقفة، تحمل فوق رأسها الكرة الأرضية أو قرص الشمس. لها قرنان طويلان يلتويان الى الأمام. الضوء كان خافتا. أو ربما هو التهاب العينين أضعف بصرها. لم تر وجه المرأة، ولم تتأكد مما تحمله فوق رأسها.

لم يعد عقلها قادرا على التمييز. كل شئ اختلط داخل رأسها مع اشتداد الحرارة. ارتفع قرص الشمس فى السماء، وازدادت حركة الريح مع تدفق السائل الأسود. هبط العرق على شكل قطرات من أنفها. لم يكن لذراعها أن ترتفع لتمسح العرق. تركته يتساقط مع دموعها ويفيض. ربما كان قرص الشمس هو العدو. اشتغل عقلها من جديد وهى تفترش الأرض لكن صوت المرأة قطع عليها التفكير.

- قومى يا اختى استحمى، كل عيد وانت طيبة.

تقلبت فى موضعها تتأملها. جلبابها أسود طويل. لها ملامح خالتها. عنقها يلتوى تحت الثقل. الى جوارها طشت الغسيل. أمسكت قطعة حجر وراحت تدعك قدمها المشققة. تزيل عنها الطبقة السوداء. تصقلها بقوة كأنما

هى قدم تمثال النصر. أحدث الدعك فى رأسها خدرا لذيذا. لم تعرف ما علاقة القدم بالرأس.

لولا ضربة الشمس كان يمكنها الاستمتاع اكثر بعملية الغسل، ولولا أيضا بعض الحياء. فهى امرأة غريبة عنها وليست خالتها. وهى تخلع ملابسها كلها. كان العرى مفزعا. لم يحدث قط أن تعرت أمام امرأة أو رجل، على الأخص زوجها. كانت في نظره طاهرة كالعذراء مريم، ورئيسها فى العمل كان يسميها الست الطاهرة. حتى دخل فجاة فى حملة تفتيشية.

- أين المنشور؟

- ماذا؟

- المنشور الذى أخفيته.

- لم أخف شيئا.

- رأيته معك بخط يدك ضد صاحب الجلالة.

- لم أكتب شيئا.

- إرفعى ذراعيك!

رفعت ذراعيها الى أعلى. أحست أصابعه تفتش بين نهديها. وتهبط الى إسفل حيث المنطقة المحرمة.

- هذا انتهاك لحرمة الجسد!

حين ثابت الى وعيها كانت تصيح. أين حقوق الإنسان؟ رأت نفسها راقدة فى الفراش. من حولها النسوة حاملات البراميل. فوق عيونهن سحابة. طبقة داكنة من النفط تحجب النتى، وكان هناك أمر من صاحب الجلالة :

- أى امرأة تضبط وفى حوزتها ورقة وقلم تقدم للمحاكمة.

كلما نظرت فى عيونهن اشتدت وطأة الألم. اختفت الواحدة وراء الأخرى. بدأت واحدة منهن وتبعتها الأخريات. سمعت أصواتهن عبر الجدار. يلهثن بصوت متقطع. طقطقت فقرات أعناقهن تحت البراميل. وقع أقدامهن فوق الأرض مكتوم. تحمله الريح الى بطن الجسر حيث بيوت القرية. نباح الكلاب يأتى من بعيد. والسؤال يدور فى رأسها: هل تهرب وحدها أم تكشف لهن الخطة؟



لم تكن الخطة مكشوفة بعد. وكتب رئيسها فى العمل تقريرا سريا. كانت التقارير عنها لاتكتب إلا فى السر. امرأة أخرى احتلت مكانها فى القسم. تراها جالسة فى مكتبها تحملق حولها فى فضول، لن تكف عن الحملقة حتى تعرف السر. تفتح إدراجها تفتش الأوراق. تقبض بأصابعها على رسالة حب قديمة. أبيات من الشعر تقرأها. بين كل بيت وبيت ترتفع أنفاسها فى تنهيدة طويلة. فى الملف السرى تعثر على تاريخ ميلادها. صورة خالتها من حول رأسها المنديل. تتوقف عيناها فوق البيت. غرفة بلا

دورة مياه فى الزقاق. يدفعها الفضول الى النظر من شق الباب. ترى الغرفة راقدة فى الظلمة عارية من الأثاث. بحركة جانبية من عينها تلمح زوجها جالسا يقرأ الصحيفة. يحرك رأسه قليلا فترى أنفه من الجانب. كبير ومقوس يشبه أنف صاحب الجلالة. لكن صورته غير منشورة وإسمه مجهول. جالس بلا حراك صامت تماما. يشى الصمت بغيابها. تمتلئ نفسها بالحسد لأنها استطاعت أن تهرب. كيف هربت؟ خرجت فى إجازة ولم تعد؟ تكتم السر فى قلبها ثم ينفجر رغما عنها. تنتشر الإشاعة فى قسم الحفريات. يتهامس الزملاء والزميلات وتطفو فوق عيونهم نظرة تنم عن الغيرة.

لم تكن الغيرة أمرا مضادا للعقل. كانت طبيعية تماما فى عيون الموظفين. فليس هناك إنسان أشد غيرة من الموظف. خاصة فى قسم الحفريات. يرى الناس من حوله تتحرك وهو حبيس مكتب من الخشب. يتحدث الناس عن المستقبل وهو يعيش فى الماضى مع الحفريات. والحياة تمضى فى طريقها بدونه. لايتغير شئ فى الكون إن عاش أو مات. ليس أمامه إلا النعاس وهو يقرأ الصحيفة، أو البحث عن الآلهه فى بطن الأرض. نوع من العشق الإلهى، يقوده الى الحنين للموت. أو الخروج فى إجازة.



- هل حدث بينكما شجار؟

- أبدا.

رد زوجها على السؤال فى غرفة التحقيقات. إدار رجل البوليس جسمه مع الكرسى.

- أتظن أنها انتحرت؟

- أبدا.

- ألم تكن تحن للموت؟

أبدا.

- كيف تفسر اختفاؤها إذن؟

- لا شئ.

- لا شئ؟

- نعم لا شئ!

مط زوجها شفتيه وهو يقول لا شئ. تثاءب حتى طقطقت عظام فكيه. حرك وجهه ناحية الصحفيين. انطلق شعاع الفلاش وحرق سطح عينيه. ظهرت صورته فى الصفحة الداخلية. فكه مربع والوجه مستطيل اكثر من اللازم. لا علامات مميزة إلا شامة سوداء فوق خده الأيسر. من بين شفتيه المطبقتين أفلتت الابتسامة. فى خياله منذ الطفولة كان يرى صورته الى جوار صاحب الجلالة. ترفع أمه ذراعيها الى السماء، تدعو السيدة الطاهرة أن يصبح إبنها مثل الملك. لم لا يا ستنا الطاهرة؟ ألم تلده بطن مثل البطن التى ولدت الملك؟

كان لهاث النسوة قد اختفى مع خيالهن الأسود. نباح الكلاب من بعيد بدأ. لم تكن الكلاب تنبح دونما سبب. أتدبر هؤلاء النسوة حركة ما؟ فى عيونهن تحت السحابات نظرة متمردة. عمل مضاد فى حالة كمون دائم.

فتحت عينيها فأحست حرقة الشمس. كانت تهذى بالحمى. وكلمة العمل المضاد ترسم من حولها ستائر من الوهم. ترى نفسها متربعة كالبرميل فوق رؤوس النسوة. يسرن بها فى أزقة القرية. تطل عليهن العيون من فوق الأسطح، يخبطن الأرض بأقدامهن، وتهتز صورة صاحب الجلالة فوق العمود، ثم تسقط تحت الأقدام تدوسها.

دعكت عينها بطرف اصبعها. الألم حارق،وهى ممدودة فوق الأرض. منهوكة القوى. طارت ذبابة ووقفت فوق أنفها. راحت تأكل قطعة متسلخة من الجلد. رفعت ذراعها لتهشها، لكن الذبابة بقيت فى مكانها. فى يدها الأخرى كان الأزميل راقدا، بلا حراك. ترامى من بعيد صوت نباح، وأطفال يتقاذفون بالحجارة، ورجال يتشابكون بالأيدى، والنفط يتدفق بلا اتجاه، وألوان السماء تغيب فى الظلمة.

- جهزى العشاء!

صوت الرجل يخرق أذنيها. نبرة آمرة، طبيعية تماما حين يخاطب الرجل زوجته. خادمة غير مدفوعة الأجر. أيكون هو زوجها؟ لا تعلم تماما متى تزوجها. ربما أقدم على الزواج منها فى غيابها وحرر العقد دون حضورها. لم

تكن المرأة تحضر عقد زواجها على أى حال، وكل شئ يمكن أن يتم دون الحاجة الى وجودها.

تقلصت عضلات أصابعها حول الأزميل. شحنة مفاجئة من الغضب، دفعت الدم فى العضل. رفعت ذراعها وضربت بطن الأرض. ارتطم رأس الأزميل بشئ صلب. تمثال من البرونز، أو حجر السيج. لونه أقل عتامة كالزجاج البركانى.

ارتعدت أصابعها وهى تشده الى الخارج. لامست اطراف أناملها سطحه الناعم. تحسست العنق والصدر. ارتطمت يدها بالنهدين البارزين. أطلقت صيحة وفتحت عينيها. كانت هى الإلهة حتحور، عارية الثديين، تمسك نهديها بكفيها فى وضع عطاء كامل، ممسكة بزوج من الأفاعى.

كادت تمسكها لولا أن تدفقت كثبان النفط وأغرقت كل شئ. أيكون هو طوفان نوح؟ فى كتاب الحفريات قرأت عن الطوفان، سنين القحط والجفاف، وزحف الجبل والصحراء. كانت الأرض مقبلة على العصر الجليدى، وحدث خلل فى التوازن الحيوى للغلاف الجوى، وانقلب نظام الحكم بعد مقتل الإلهة الأم.

- جهزى الأكل أنا جعان!

لم تسمع هذه المرة. كان صوت النفط المتدفق يغطى على كل شئ. تراخت أصابعها حول الأزميل وسقط. كاد التيار يجرفه لولا أن مدت جذعها وأطلت برأسها حتى الحافة. تشبه دوامه البحر. تدور حول نفسها بسرعة

دورات الأرض. يتصاعد منها الدخان كأنما هى تغلى. ارتدت طفلة تصرخ:

- يا أماه!

ارتج جسدها مع الكلمة. أماه؟ لأول مرة تنطق الاسم بوضوح. منذ ولدت لم يحدث أن نادت على أمها. ربما لأنها ماتت وهى تلدها. أو لأنها لم تكن تعرف النطق بعد.

حين هدأت العاصفة تمددت فى استرخاء. أنفاسها تلهث وعيناها مغلقتان. عادت اليها صورة الطوفان القديم. كان الخوف من الغرق يملأ قلوب الناس. وفى قمة الخوف يلهجون مثلها باسم الأم. خالتها حين كانت تخاف تصرخ : يا امه بدلا من يا أماه! تبصق فى فتحة جلبابها. الأزقة كانت ضيقة مسدودة بأكوام السباخ. البيوت طينية لايظهر منها إلا ذؤابات ضوء، ترسم الظلال كالأشباح. ليل القرية كان مخيفا. ليل مسكون. يلائم الشيطان تماما ليتجول فيه. كانت خالتها تمشى فى بطن الجسر حين رأته تلك الليلة. كان هو الشيطان بلحمه ودمه متجسدا على شكل البشر. وقال الناس : الطوفان من الشيطان، وراحوا ينادون على الإلهة الأم لتنقذهم :

- يا أمنا الحبيبة، أين أنت؟

- أهو الشيطان الذى أخفاك؟

- وضع غلالة سميكة فوق وجهك؟

- شوه صورتك وغيرّ إسمك؟

كانت نائمة حين قرأت الأغنية فى الكتاب. صوت غنائهم يسرى فى أذنيها من تحت الوسادة. ينقطع الغناء فجأة، ويدوى صوت زوجها.

- أنا جعان! ألا تسمعين؟!

لم تغير وضع جسمها الممدود فوق الحافة. صوته الغاضب كان يأتى من بعيد، كأنما من قاع البئر. لا تكاد تسمعه بأذنيها. لايلامس منها إلا حافة الوعى. انقلبت على جنبها الآخر لتخفف من حدة الشمس. صوته رغم الغضب يشبه صوت طفل رضيع. ألم تفطمه أمه بعد؟ قبل أن تفطمها خالتها كانت تمسك بفكيها حلمة الثدى. كانت الدنيا ليل، والحرارة انخفضت بعد غياب الشمس، وصوت الطوفان كأمواج البحر.

- أنا جعان.

صوته أصبح مملوءا بالرقة. كان الجوع يهذب من طبيعة الرجال. يكشف عن الانسان تحت القشرة الخشنة. وامتلأ قلبها بالشفقة كالأم. دخلت المطبخ وأشعلت الموقد. ضغطت على المسدس فانطلقت الشرارة. ضحكت كما كانت تفعل وهى طفلة. سخنت له الحساء فى وعاء من الألومنيوم. قشرت البطاطس ورؤوس البصل قطعتها بالسكين. تصاعد البخار من الوعاء، وتساقطت ذرات النفط من السقف. صنعت طبقة معتمة فوق سطح الحساء. راحت تنزعها بيد المغرفة. لكنها كانت تعود وتسقط فتنزعها فتعود، الى أن نجحت فى نزعها تماما، الا ذرات قليلة سوداء ظلت طافية فوق السطح كالذباب الميت.

كان يرشف الحساء بصوت مسموع يشبه الأنابيب وهى تشفط النفط. بين كل رشفة يزمجر بصوت يشبه قرقعة الريح. ويدب الصمت بعد أن ينتهى من الأكل. يغمض عينيه دون أن يخلع بدلة الشركة. لونها أزرق تعلوها بقع النفط كالزيت. تفوح منها رائحة الجاز المخزون فى بطن الأرض. يبدو وهو نائم كطفلتها التى ولدتها فى حياتها السابقة ثم ماتت. حين يصحو من النوم تخلع عنه ملابسه. تدعك جسمه بقطعة من الحجر. ثم تنشفه بسروالها القديم. تلوى المنشفة بين يديها حتى تصبح مثل حزمة من سلك الألومنيوم. تنشفه بقوة كأنما هو قاع الصحن. من بعيد يترامى نباح الكلاب. ولهاث النسوة، فى إيقاع منتظم يشبه اللحن، تهز رأسها بالإيقاع ذاته، مع حركة ذراعيها وأنفاسها المتصاعدة، والدقات تحت ضلوعها. ثم تصبح الحركة بطيئة، رتيبة متكررة تجلب لها النعاس وهى واقفة . . . .

تثاءبت بصوت عال. رأته يدخن وهو جالس وراء الصحيفة. ينفث الدخان من بين شفتيه ويغيب فى اللذة.

- نفس أرجوك!

- ماذا تقولين؟!

- نفس واحد من السيجارة!

- النسوة لا تدخن بأمر صاحب الجلالة.

أطبقت شفتيها ولم ترد. كانت قد أطعمته وحممته. جعلت منه طفلتها

الغائبة. مسحت عنه الألم. أليس من حقها أن تغيب فى اللذة مثله؟

حين ناولها البرميل لتحمله أرادت أن تقلبه فوق رأسه. لكنها تراجعت. يمكنها الخضوع اليوم من أجل هدف أكبر فى الغد. لايمكن أن تخسر كل شئ من اجل نفس واحد.

كان الدخان يتسرب من فتحتى أنفه. تتسع الفتحتان وتهتز شعيراتهما من شدة اللذة. جذبت نفسا عميقا من الهواء. شهيق عميق مرة ومرتين. تسرب بعض الدخان الى صدرها. نفثته من فمها وأنفها. أجل، إذا لم يكن فى الحياة لذة فمن حقها أن تنفث الدخان فى الهواء. قد يتسرب الغضب مع الدخان خارج جسمها، وتبدو الدنيا أقل كآبة. أو ربما يصعد الدخان الى رأسها فتعثر على فكرة عبقرية تخلصها من حياتها.

كانت ترى صور العباقرة فى الكتاب. تحوط رؤوسهم سحب الدخان. يميل الواحد منهم برأسه الى ناحية. يسند ذقنه بيده. عيناه نصف مفتوحتين شاخصتين إلى أعلى، ثابتتان فوق الاشئ. والدخان يتصاعد من فتحتى أنفه المتسعتين. وفى الكتاب أيضا كانت ترى صورة الأنبياء، ولايمكن للواحد منهم أن يرى الإله إلا من وراء سحابة دخان.

جذبت نفسا آخر أكثر عمقا. امتلأ رأسها بالدخان. بدا عقلها ينبض تحت العظام. والفكرة تولد بحركة محسوسة. حوطت رأسها بيديها تخشى عليها الإفلات. قد تتسرب الفكرة من الثقوب التى تفتح على الأذنين أو العينين

أو الأنف. راحت تضغط بيديها على عظام رأسها. لم يكن فى مقدورها أن تستمر على هذا الوضع فسقطت ذراعاها الى جوار جسمها.

- أتنامين وأنت واقفة؟

تمطت وتثاءبت بصوت يشبه مأمأة الماعز. سمعت بأذنيها الصوت كصفير الريح. كانت العاصفة تهدر والذرات السوداء تزحف من تحت ملابسها. تغزو فتحات الجسم. أغمضت عينيها تماما وذابت اليقظة فى حلم غريب. رأت نفسها تمتطى صهوة الأزميل كأنه حصان. يجرى بها عبر مدينة مجهولة. مبانيها عالية. أطراف المبانى تشق السحب. شوارعها ضيقة لاتكاد تسمح بمرورها. يطير بها الأزميل فى الجو بلا أجنحة. يحلق فوق الاسطح وهى تهز رجليها كأنما تركب المرجيحة. عيون النسوة ترمقها بإعجاب مملوء بالحسد. أيديهن ترتفع فى الهواء تصفق، ثم تشدها الايادى إلى أسفل بأمل اسقاطها. تهز رجليها بقوة ليرتفع بها الحصان، الذى لم يعد حصان، وإنما عصا من الجريد، تركبه كما يفعل أطفال القرية.

تشدها الأيادى فتسقط. يتهاوى جسمها ويغرق فى الضباب، ثم ترى نفسها تمشى فوق الأسفلت، يذوب تحت قدميها من شدة الحر. تعلق بكعب حذائها قطعة من القطران لها رائحة النفط. تسرع الخطى وهى تلهث، وتدخل فى بناية سوداء، بلا نوافذ ولا أبواب، إلا الأعمدة الحديدية، والرائحة خانقة. الأزميل داخل حقيبتها، والحزام فوق كتفها تشد عليه. قدماها تصعدان السلالم، توشك على الانزلاق. تستعيد توازنها دون أن تمسك شيئا. لم يكن

هناك ترابزين، والسلم حلزونى ضيق، لايسمح بمرور جسمها. تندفع داخل باب صغير ينفتح فجأة، فإذا بها داخل الغرفة العارية من الأثاث، إلا مقعد يدور حول نفسه، ومنضدة يتحلق حولها عدد من الرجال، لايظهر منهم إلا النتوءات البارزة فى عظام الوجه، الجبهة، الخدان، الفكان، عظمة الأنف، والذقن.

لم يرفعوا رؤوسهم حين دخلت. عاكفون فى استغراق فوق كتاب. يقلبون أوراقه بأصابع مفاصلها بارزة. يبدأون من الغلاف حتى الصفحة الأخيرة، ثم يبدأون من جديد.

- أهذا هو اسمك؟

الصوت يشبه زوجها، لكن الغليون الأسود فى الفم يؤكد أنه رئيسها فى العمل، دار حول نفسه وهو جالس فى المقعد. أصبح أمامها مباشرة. رأت وجهه وأدركت أنه المحقق فى البوليس. دب الصمت. سمعت قرقعة الأوراق، وسحب الدخان تتصاعد الى السقف. إصبعه يشير إلى الاسم فوق غلاف الكتاب.

- إنه اسمك أليس كذلك؟

- نعم.

- والكتاب ؟!

- عن الإلهات.

- أليس ذلك تجديفا فى حق الآلهة؟

أرادت أن ترفع يدها وتسأل. ماهو التجديف. وأين المجداف، لكن الضباب أعاقها عن الرؤية. وسمعت ضجة مفرقعة صادرة عن أوراق تتكسر. ملأت أنفها رائحة دخان. كان الورق يحترق. طارت شرارة من فوهة الغليون المشتعل. امتد الحريق الى براميل النفط. انفجر الواحد وراء الأخر وارتفعت ألسنة النيران فى السماء.

حين فتحت عينيها كان أنفها مملوءا بالدخان. الرجل جالس فى مكانه يحدق فيها. تصور أنها سرقت سجارة من جيبه وهو نائم. قبل أن ينام كان يعد السجائر، والقروش فى جيبه الداخلى، والزجاجة يخبئها فى مكان لاتعرفه. لكن الدخان كان يغرق المكان. يزحف فوق بيوت القرية كالشبورة السوداء.

خرجت الصحف تعلن أن الحريق تم بفعل الشيطان. رفع أهل القرية أذرعتهم نحو السماء. يرجمون الشيطان بالحجارة. ارتفعت أصواتهم كهدير الرياح. لكن السماء لم تسمع دعاءهم. كان الشيطان يتمشى فوق الجسر. ترمقه عيون النسوة من وراء الشيش. تنتفض أجسادهن داخل الجلاليب السود. يربطن رؤوسهن بالمناديل. تشد الواحدة منهن المنديل، وتلفه ثلاث مرات. تعقده فوق جبينها على شكل رأس الثعبان. تدور حول نفسها وتضرب الأرض بقدميها : ياستنا الطاهرة! ترتفع أصوات النسوة، ودقات الطبول، وصياح الأطفال، وقرقعه العصى فى أيدى الرجال، ونقيق الضفدع

فى البركة، ونباح الكلاب تجرى هنا وهناك، والغبار يتصاعد فى السماء، ويمتلئ الكون بضباب أسود، يزحف متدفقا كالشلال، لا هو بالسائل ولا هو بالدخان، ولايمكن الامساك به بين أصابع اليد.

- أين اخفيت الزجاجة؟

قالتها وهى تصحو فجأة من النوم. حلقها تشقق من الظمأ، والسخونة فى جوفها كالحريق. كان الرجل راقدا وجهه للحائط. دست يدها تحت رأسه. لم يكن هناك إلا عقب سجارة محترق. تسللت على أطراف أصابعها. فتحت الباب وخرجت. لكن الهواء لم يعد له ملمس الهواء. يدها حين تمتد أمامها تصطدم بشئ صلب. تراجعت الى الوراء خطوة وراء خطوة، حتى دخلت بظهرها من الباب. حركة لم يألفها جسمها منذ الطفولة. كانت تمشى الى الأمام ووجهها الى الخلف، أو تخرج من الباب بظهرها. فى تلك اللحظة تكون خالتها واقفه أمامها. تحدق فيها بعينين يرتعش لهما البدن، لم تكن فعلت شيئا سوى أن سألتها : هل صحيح ياخالتى الشيطان يتمشى فوق الجسر؟ فانقلبت عيناها الى الداخل ثم الى الخارج. كانت العاصفة فى أوجها. والمطر يهطل وانطفأت كل الأضواء. ولم تعد تسمع إلا صفير الريح. وصوت خالتها يدوى فى ظلمة الليل : ماشيطان إلا بنى آدم.

قبل الفجر سمعت الكلاب تنبح، وقرقعة العجلات مع صفير الريح. هجم الرجال على خالتها وحملوها الى العربة. قفزت خلفهم تجرى. تمد ذراعها عن آخره لتمسك يدها. قدماها تغوصان فى البركة حتى الركبتين. العجلات

تشق المياه السوداء وتختفى فى الظلمة. الكلاب تسبح من خلفها. لايظهر منها إلا رؤوس سوداء مستطيلة مثل سرب من الضفدع. وهى تغوص فى البركة. تمتلئ أذناها بطين أسود وأصوات تأتى من بطن الأرض :

- امرأة لاتؤمن بوجود الشيطان؟

- إنها مجنونة ياصاحب الجلالة.

- بل كافرة!

- نعم ياصاحب الجلالة، والكفر والجنون شئ واحد.

كانت قد غاصت تماما، ولم يظهر منها فى ضوء الشفق إلا ذراع ممدودة عن آخرها، وأصابعها الخمسة متقلصة، تقبض على قطعة من الطين المتجمد.

امتدت اليها الأذرع تشدها الى الخارج. كأنما يشدونها خارج الرحم. وجوه النسوة من حولها سمراء مليئة بالتجاعيد. اندفع الهواء الى صدرها بصوت حاد كالصرخة وفتحت جفونها الملتصقة. رأت الرجل راقدا مغمض العينين، ذراعه تنزف الدم. وهى الى جواره عارية الجسد والدم لونه أسود. يتجمد فى أجزاء، وتظل أجزاء أخرى مابين السيولة والصلابة. وهى تمد ذراعها لتمسك بالترابزين. رائحة فى أنفها غريبة، تشبه الجاز المتعفن.

- جهزى الشاى.

سمعت صوته وهو يشد سرواله الى أعلى. كان نصفه الأعلى عاريا.

يجلس أمام عتبة البيت. من حوله أربعة من الرجال. عاكفين فى استغراق حول لعبة ما. أوراق سميكة مربعة. كان هو جالس فى الوسط يوزع عليهم الأوراق. جسده يرتخى فوق المقعد، والصدارة تلائم جسده تماما، تتسق مع ملامحه. أصابعه يضمها بالأوراق ويفردها ثم يضمها، وعيون الآخرين تنظر الى يده متلهفة.

- الشاى!

فى صوته لهجة الأمر. كأنما هو زوجها. وهى تنظر اليه من خلال غشاوة. ربما استبدلوا زوجها برجل آخر. انبعثت خشخشة صادرة عن حركة توزيع الورق. وجوه الرجال مشدودة. عيونهم ثابتة فوق الورق. داخل كل عين يدور «النني» حول نفسه. لابد أنهم خمسة وليسوا اربعة. كان رأس خامسهم يختفى وراء الصحيفة. أيكون هو زوجها؟ ساقاه ممدودتان أمامه. قدماه كبيرتان. وأصابعه متلاصقة، بين الأصبع والأصبع غشاء أسود.

كانت الشمس قد بدأت فى الهبوط. سقط الضوء الشاحب على الصفحة الأولى. ذرات سوداء تسبح فى الشعاع المائل. أعلى الصفحة قرأت التاريخ. الثلاثاء الموافق السادس عشر. نظرت فى الساعة، الثانية، وعقرب الثوانى يتحرك. لابد أن الزمن يمر كالمعتاد، وقرأت المانشيت الكبير.

- صاحب الجلالة يعلن الحرب على الشيطان.

أوراق اللعب لم تكن هى الكوتشينه. وإنما هى شئ يشبه الشطرنج.

أجسام العساكر مصنوعه من الخشب. واقفه في مكانها عاجزة عن الحركة. أصابع كبيرة تلتف حولها، وتحركها من مكان إلى مكان.

- كش ملك!

ليس صوت زوجها بالتأكيد. لم يعد يطلب الشاى. استغرق في اللعب. يبدو أن الملك لايريد أن يكش. ارتفع الصوت مرددا : كش! بدأت النبرة يعلوها الغضب. والأصوات تختلط بعضها بالبعض.

- هذه قواعد اللعبة ياأخي.

- أنت تغش

- أنا أكثر أمانة منك.

- أنت جاهل.

- أنت حمار.

تركوا الملك واشتبكوا في معركة بالأيدى. ارتفع الغبار في الجو، وانتشر رذاذ لعابهم من حولهم، وأنفاسهم تلهث. لم يفطن أحدهم الى الصحيفة، دحرجتها الريح، تقلب الصفحة وراء الصفحة. وفجأة رأت صورة تشبهها.

- امرأة خرجت في اجازة ولم تعد. مطلوب العثور عليها حية أو ميتة. ممنوع إيوائها أو التستر عليها.

لم يكن لها هذا الأنف في الصورة. أيكون هو أنف امرأة أخرى خرجت في إجازة؟ كان رئيسها في العمل يقول ان أنفها رومانى. تصورت أول الأمر أنه نوع من الهجاء.. كان الرومان في نظرها من آكلي اللحوم.

في الصفحة نفسها رأت صورة المحقق. كان جالسا فوق الكرسى يدور به حول نفسه ثم يتوقف. فيصبح ظهره للحائط ووجهه ناحية زوجها.

– أهذه صورة زوجتك.

– نعم.

– متأكد.

– نعم متأكد.

– مائة فى المائة.

– ليس هناك ماهو مائة فى المائة.

– أنت غير متأكد إذن؟

– نعم لا.

– ماذا تعنى بنعم لا ؟ أهذه اجابة؟

– ماذا تكون الاجابة؟

– اما نعم، واما لا.

– إذن نعم.

– أنت غير متأكد اذن؟

– نعم.

– مائه فى المائة.

- لا.

ضرب رجل البوليس الأرض بقدميه. فإذا بالكرسى يدور حول نفسه دون توقف. انتهز زوجها الفرصة، فأخفى وجهه وراء الصحيفة. حين توقف الكرسى أصبح وجه المحقق ناحية الحائط. راح يدق بأصابعه على الآلة الكاتبة، ثم استدار. كان رئيسها فى العمل جالسا، والغليون الأسود بين شفتيه، يهتز والدخان يتصاعد.

- لم أكن اتغزل فى أنفها. فأنا لست من المعجبين بالأنوف الرومانية، وأفضل عليها الأنوف الوطنية من النوع الأفطس.

- ماذا تقول؟

- كانت امرأة مطيعة تماما ولاشئ فيها يثير الشهية.

كان المحقق يدور بالكرسى حول نفسه. وعاصفة من الهواء تقلب الأوراق. لم يكن هناك دليل على شئ. والصحيفة مفتوحة أمام عينيها. صورتها تظهر وتختفى مع حركة الريح. وأخبار المفقودين من الناس أسفل الصفحة. كان اختفاء الناس أمرا طبيعيا. وهناك قانون للمفقودين من الرجال. على المرأة ان تنتظر زوجها المفقود سبع سنوات، ولاتذهب لرجل آخر، فالجنين يبقى فى الرحم حيا سبع سنين. وهو ملك الرجل المفقود حتى يعود، والمرأة ليست إلا الوعاء. المفقودات من النساء لم يكن لهن قانون، ليس على المرأة ان تصبح مفقودة ليذهب زوجها لامرأة أخرى.

أغمضت عينيها فى مواجهة الريح. شعاع الشمس مثل لسان اللهب. كانت الفكرة تدور فى رأسها مؤلمة كالمسمار. إذا كان التحقيق مستمرا فلابد أن هناك حملات تفتيش. وهناك من يتعقب خطاها. ربما هناك كلاب من النوع الجيد. ذلك النوع المستورد الذى يميز رائحة البشر. يدربونها على التقاط الرائحة من المسافات البعيدة، ورؤية النجوم وقت الظهيرة، والدق على الآلة الكاتبة، واستخدام الأدوات الحديثة، وهى لاتعرف شيئا عن الحداثة، كل ماتعرفه ينتمى الى الماضى والحفريات. لن تحميها الإلهة حتحور أو سخمت من أى كلب مدرب. لكن فى اعماقها شئ غامض. ربما كان الأمر عائدا الى ذلك الرجل الآخر. أيكون هو الذى أرسل البلاغات عنها الى البوليس؟ أو ربما هو رئيسها فى العمل. لقد لمح بطرف خفى الى شكل أنفها، وهذه دعوة صريحة لها هو أكثر من الأنف.

أفاقت على صوت الشخير المنتظم. كان الرجل يغط فى نومه فوق عتبة الباب. راح يتنفس بصوت عال كعادته. ينفخ الهواء وشفتاه تهتزان. راقدا فوق ظهره، واضعا ساقه اليمنى فوق اليسرى، يهز قدمه فى الهواء. ارتفعت الشمس فى كبد السماء. وصلت الحرارة الى درجة حطمت فيها كل شئ. حتى تلك الغلالة الباقية من الحياء. رأته ينزع عن جسمه السروال أيضا. أصبح عاريا كما ولدته امه. لكن الحياء سرعان ماعاوده مع انخفاض الشمس. فارتدى السروال على حين ظل نصفه الأعلى عاريا.

لم تكن عيناها تتابعان حركة الشمس. كانت تثبت نظرتها فوق الصورة

فى الصحفية. تحت الأنف الرومانى كان فمها مطبقا مزموما. زاوية كل عين ملتهبة. واسمها الثلاثى غائب. ليس هناك أى تقرير من البوليس. ربما كف الرجل عن إرسال البلاغات.

أشاعت الطمأنينة فى جسدها نوعا من النشاط. نهضت من مكانها وداست فوق النفط المتجمد. لم تكن ترتدى إلا السروال الواسع. منتفع الى حد كبير. وجذعها عار تماما. كان الهواء رغم انعدامه يتخلل بشكل ما الى تحت الإبط. رفعت ذراعيها الى أعلى تستشعر بعض الأرتياح. تراكم النفط حول خصرها حيث أحكمت ربط الحزام. أرادت أن تهرش زاوية كل عين، حين تذكرت فجأة أن الظمأ يحرق جوفها.

أستدارت لتبحث عن الزجاجة. وفى الاستدارة أصبحت الشمس فى عينيها تماما. لم تستطع أن تخطو نحو البيت. بدا الكون من حولها مشتعلا بنار حمراء. ولا أثر للرجل. كان ذلك أمر طبيعى فهو يختفى حين يشاء. ويعود متى يشاء، وقد يغيب سبع سنين، وعليها أن تنتظره بحكم القانون.

بدا غياب الرجل عاديا، مع طوفان النفط، يمكن لأى شئ أن يغيب فى غمضة عين. خارج العتبة مباشرة كان الشلال يتدفق كأنما العاصفة تبدأ من جديد.

حين رفعت قدمها لتجتاز العتبة رأت الأزميل راقدا. من حول رأسه حزام الحقيبة ملفوفا على شكل عقدة. تدفق فى جسدها إحساس بالألفة. كأنما هى ترى الرجل الغائب، وقد عاد متنكرا على هيئة الأزميل.

ربما كان ثمة شئ قد حدث. أصبح للأزميل الحديدى وجود إنسانى، بدد الوحشة، وامتدت يدها اليه، تربت عليه فوق صدرها. كالأم تعثر على طفلها المفقود. وكأنما الأزميل كان يتحرك وحده. فانزلق الى الأرض. يحفر فيها برأسه المدببة الصغيرة، بإصرار عجيب. راح يحفر بإصرار وعناد. كأنما هو طفل يبحث عن أمه، ويدرك عن يقين أنها هناك، راقدة فى تلك الحفرة، فى بطن الأرض.

– ألا تكفين عن البحث؟

فاجأها صوته. ثبتت فى موضعها متجمدة. سقط الأزميل من يدها. برزت الأوردة الزرقاء فوق يديها المشققتين. أدركت وهو ينظر اليها ان نهديها عاريان. حوطت صدرها بالملاءة وفى عينيها النعاس. لم تكن صاحية تماما، ولاتعرف إن كان هو زوجها أم رجل غريب. لو كان هو زوجها فمن الأفضل أن تصرخ. فهى لا تذكر أنها تزوجت رجلا له هذا الشكل. وإذا كان الرجل غريبا فسوف يمضى الى حال سبيله دون حاجة الى الصراخ.

لم يكن صوتها حين صرخت ينتمى الى عالم البشر. ربما لم تفتح فمها على الاطلاق، خشية امتلائه بذرات النفط. ومع ذلك رأت النسوة يتجمعن حولها، ومن فوق رؤوسهن البراميل. أدركت أنها تحت المراقبة، ويمكن للآذان أن تسمع صوتها وإن لم يخرج، وعيونهن كانت ترمقها بنوع من الغضب.

– أنت امرأة مثلنا؟ لماذا لاتحملين البرميل؟!

أرادت أن تثبت أنها ليست مثلهن، وإنه لايمكن أن تعيش وتموت مثل حيوان.

- عندى هدف آخر!

- ماذا ياأختى؟

وتذكرت كل شئ دفعة واحدة. راحت تحكى الحكاية وراء الحكاية. بدأت بخالتها والسيدة زينب والسيدة مريم العذراء، وأنها أرادت أن تكون نبية لتشفى الناس من الأمراض مثل الإلهة سخمت.

رنت كلمة «سخمت» فى الجو المعفر بذرات النفط. انقلب حرف التاء الى الطاء، وما أن سمعت النسوة الإسم حتى ربطن رؤوسهن بالمناديل السوداء وبد أن يلطمن خدودهن ويصرخن فى نفس واحد.

- سخماط!

لم يكن وقوع الأمر على هذا النحو بالأمر الغريب. كان أشبه مايكون بالعودة الى الطفولة، وخالتها تربط رأسها بالمنديل الأسود، وتسب كل من يقترب منها، وإذا كانت نساء هذه القرية من نوع خالتها فلابد أن الطوفان الأسود أمر طبيعى. وامتلأ قلبها باليأس، وعيناها تتحركان وتدوران بحثا عن الفرار.

رأت أمامها امرأة من الجارات، تحمل البرميل فوق رأسها، وجهها

يختفي تماما وراء حجاب أسود لايطل منها إلا نصف عين، فانفجرت فيها مثل بركان.

- أنت لست بقرة عمياء تدور في ساقيه؟ ينبغي أن يكون من حقك أن ترى ماحولك. أليس كذلك؟ أم أنك اقترفت جريمة في الخفاء فلم يعد في مقدورك أن تظهري أمام أهل القرية بوجهك المكشوف؟

- لا أريد أن أكشف وجهي.

- أهناك سبب يدعوك لكل هذا التخفي.

- ليس هناك أي سبب يدعوني لكشف وجهي.

- تستطعين على الأقل رؤية العالم.

- رؤية ماذا ؟

- العالم، ألا يكفي أن ترى العالم؟ ألم تشعري برغبة في رؤية العالم من حولك؟

- كانت عندي رغبة، ثم سئمت كل شئ.

- اسمعي يااختي! حتى البقرة تنزع الرباط من فوق عينيها والحيوانات في القفص ترفس.

- كنت أرفس كثيرا حتى سئمت الرفس أيضا.

- غيرت الجارة لهجتها فجأة وقالت برقة.

- سمعناك تصرخين؟ أكان يضربك؟

- يضربني؟

في صوتها وهي تسأل دهشة. أكان الرجل يضربها برأس الأزميل؟ سيطر عليها الغضب. كانت تريد إلا يعرف أحد. لكن يبدو أن هذه القرية لايخفى عنها شئ. والرقابة محكمة. أرادت أن تخفي وجهها، ألا تعترف أبدا أنه ضربها. ماذا لو عرف أهل القرية أنها مثل غيرها من النساء؟ سرت القشعريرة في جسدها. كانت بشرتها قد تخربشت من الضرب. والجفاف في حلقها. أرادت ان تترك جسمها يسقط الى الأرض. لكن من حولها عيون مفتوحة، تنتظر سقوطها، فإن سقطت مرة واحدة فسوف يسهل من بعد أي شئ. من الأفضل أن تعترف. وليس في مقدورها الهرب.

كان الرجل قد عاد. رأته يقترب منها من الخلف. ضغط ركبته اليمنى في ظهرها، ثم حوطها بذراع واحدة. انبعثت رائحة نفط راكد من تحت إبطه. مرر أصابعه المشققة صعودا وهبوطا فوق عمودها الفقري. بقيت مكانها متصلبه، ثم ندت عنها صرخة الألم حين ضغط بقسوة على الفقرة الأخيرة.

- أتشعرين بلذة.

- لا.

ضحك الرجل، وبدا أنه يداعبها، تمهيدا لشئ. وإن كانت حركته مفاجئه، كأنما هي طبيعية، أو ربما أصابعه انزلقت وحدها على نحو برئ.

استدارت لتواجهه. لم تكن ثمة براءة، ولاهى أيضا شهوة الحب. كان يدفعها الى الركوع، ومن بعد ان تركع يصبح كل شئ ممكنا، رأت أن النوم هو المهرب الوحيد. ربما كانت نائمة فعلا، لأن أنفاسها كان لها صوت مرتفع. وساقاها وذراعاها فى حالة انتفاض. أكانت غاضبة. ربما، فهذا الرجل يحاول على الدوام أن يفسد عليها النوم. وهو ينجح فى ذلك على الدوام حين يشاء. أما هو فيغط فى النوم دون أن يقلقه شئ.

حين تقلبت فى نومها علقت ذرات النفط بأذنيها. وحول العينين. التصقت ذرة فى الزاوية فأزاحتها بطرف إصبعها. مدت ذراعها فى الظلمة تبحث عن الزجاجة، لم تكن هناك. كان الرجل راقدا وجهه للحائط وظهره ناحيتها. بدا ظهره أقل إيلاما من وجهه، وأصبح الأمر محتملا بعض الشئ. لكن الليل طويل لايريد أن ينتهى، والأرق كالمطرقة تدق فى الرأس. ربطت المنديل وعقدته فوق جبينها كما كانت ترى خالتها تفعل. أغمضت عينيها وجعلت أنفاسها منتظمة. ثنت ركبتيها وتكورت حول نفسها كالجنين. حاولت أن تتذكر وجه أمها قبل أن تلدها. تتبعت الطريق الذى مشت فيه كل يوم من البيت للمدرسة. كان هناك شجر ونهر طويل. رأت مكانها المعتاد فوق الجسر حين كانت تجلس ساعة الغروب، تنتظر ظهور الأضواء. راحت تعدد أسماء النجوم. بدأت بزحل والمشترى وانتهت بالزهرة والمجرة. حاولت أن تعد على أصابعها أسماء الإلهات القديمات، بدأت بنون ونمو وانتهت بنوت وسخمت.

لكن الأرق لم يفارقها. ظل كالمطرقة يدق رأسها. حركت عينيها ناحية الرجل. رأته يغطى وجهه بالصحيفة. كان لايزال نائما أو ربما كان يقرأ الأخبار ثم نام وهو يقرأ. أنفاسه منتظمة كالشخير. خشخشة الورق تحت ضربات الريح. ونباح الكلاب من بعيد، ولهاث النسوة، أعناقهن تطقطق تحت البراميل، لكن هدير الشلال المتدفق يكتسح كل الأصوات. والأرق كالشاكوش يدق رأسها، والساعة فوق معصمها تدق، والدقات تحت ضلوعها، وأنفاسها، كلها تدق فى أذنيها.

أطبقت جفونها فى محاولة أخيرة للنوم، لكن ما أن فقدت الرؤية حتى سقطت فيما يشبه البئر. وكل الأصوات توقفت. تجمد الزمن. لم تعد الساعة فوق معصمها تصدر أى صوت. زحفت ذرات النفط تحت القرص وغطت العقربين. عقرب الثوانى أيضا كف عن الحركة. لم يكن شئ يتحرك إلا أوراق الصحيفة تنقلب وحدها تحت حركة الهواء. تكشف كل صفحة عن عناوين بالخط الأحمر والأسود.



- صاحب الجلالة يتبرع بثلاثة ملايين دولار لحديقة الحيوان فى القطب الشمالى.

- قتل نصف مليون فى حرب النفط.

- حرم صاحب الجلالة توزع الحلوى فى عيد الطفولة.

- إطلاق الرصاص على امرأة ضبطت فى الشارع وهى تمشى بوجه مكشوف.

- بيع الديون الخارجية بالمزاد.

- وزير النفط يحصل على رشوة أكبر من ميزانية الدفاع.

- بيع المخدرات فى فصول المدارس.

- انتشار فيروس الإيدز بين الأطفال.

- من الإلحاد إلى الإيمان ومن الشك إلى اليقين. بقلم رئيس الصحوة الدينية ورئيس الحزب الشيوعى سابقا.

- مصرع ثلاثة من النسوة فى الطابور أمام المخبز.

- ثمانية رجال يغتصبون طفلة فى المدرسة.

- أم تذبح أطفالها الأربعة فى عيد الأم ثم تنتحر.

- رجل مفقود يعود بعد سبع سنوات فلا يجد زوجته. مطلوب العثور عليها حية أو ميتة. ممنوع ايوائها أو التستر عليها.

- معلومات جديدة يحصل عليها البوليس عن المرأة التى خرجت فى إجازة. كانت المرأة شديدة الشغف بالبحث عن الموميات كنوع من الترفيه.



مضى الوقت وهى تحملق فى كلمة «الترفيه». لابد أن النوم غلبها لأن

عقلها كلن متوقفا. الترفيه. لم تعرف معنى الكلمة. والشمس بدأت تصعد. ربما خرج الرجل إلى الشركة، وحاملات البراميل ليس لهن صوت. نهضت على أطراف أصابعها. زحفت يدها تحت الفراش وأخرجت الحذاء. كان مملوءا بالنفط حتى الحافة. أفرغته ونفضت كل فردة بالأخرى. وضعت الأزميل في الحقيبة. والخريطة. علقت الحزام فوق كتفها. وانطلقت قبل أن تلحظها عين. أغلقت جفونها وهى تجرى، كأنما إغماض عينيها يخفيها عن الأعين.

كان الخلاص يبدو وشيكا، والهروب أكثر يسرا لو أنها استمرت فى عدم الرؤية. لكن فكرة جديدة طرأت على عقلها. يمكنها أن تخفى وجهها عن الانظار تماما، دون أن يتعرف على وجهها أحد. من حق المرأة أن تخفّى وجهها بالكامل دون أن يطاردها أحد.

لكن الأمر فى حالتها كان مختلفا. فهى امرأة مكشوفة الوجه. الصحيفة نشرت صورتها واسمها الثلاثى وعنوانها. غرفتها أيضا ظهرت فى الصورة، والسرير الخشبى الساقط الألواح. واللمبة المتهالكة فوق مكتب يعلوه الغبار. وكتاب مفتوح تطل منه رأس مومياء. ودرج فى المكتب به بعض قطع النقود. ودفتر توفير فى البنك بلا رصيد. ثم هناك ذلك الحبل المتدلى من السقف، كأنما جاهز للالتفاف حول العنق. والذباب الميت الملتصق به. وفى نهايته تتدلى اللمبة المحروقة. ثم الصمت. أجل الصمت الذى يصفر فى الأذنين كالريح، أو ذلك الشخير المعتاد لرجل يغط فى النوم.



كان زوجا مثاليا يوفر لها السكينة، وكل شئ يشير إلى رغبته الصادقة في استمرار الزواج.

قالها رجل البوليس وهو يدور بالكرسى، يهز يده فى الهواء ممسكا بهراوة طويلة. أشار بها الى المكتب.

– لاشئ يثير الاشتباه إلا رأس المومياء، هذى! أتعرف رأس من هذه؟!

– رأس أم الهول.

كان رئيسها فى العمل يرد بصوت مملوء بالثقة، فيضغط على كلمة «أم الهول» بفكيه وأسنانه، ثم ينفث الدخان فى السقف، والغليون بين شفتيه. رمق رجل البوليس بطرف عينه، وراح يؤكد بصوت عال.

– نعم أم الهول.

– أم الهول؟ لم نسمع بها من قبل؟

– عدم السماع بها لايعنى عدم وجودها.

– أهى زوجة أبو الهول؟

لم يعد رجل البوليس مستقرا فى الكرسى. يدور به حول نفسه والهراوة فى يده. رفع ذراعه وكادت تهبط فوق رأس أم الهول. لكن رئيسها فى العمل كان جالسا مستقرا. ينفث الدخان من فتحات أنفه وفمه. أذناه أيضا خرج منهما الدخان. الغليون الأسود يلتوى إلى الأمام بزاوية حادة، وعنقه

أيضا يلتوى بالزاوية نفسها. عيناه الى أعلى نصف مفتوحتين. يرمق رجل البوليس بطرف عين.

- بعد أن اغتصب أبو الهول العرش أمر بازالة النهدين من التمثال، وإضافة اللحية.

- اللحية؟!

- نعم، لحية مستعارة، أنظر!

مد رجل البوليس يده بالهراوة وفحص شعر اللحية المتدلية من الذقن. انتهز رئيسها فى العمل الفرصة وراح يستعرض الكثير من علمه بالحفريات.

- صانعو التماثيل سخروا أنفسهم لخدمة الإله الجديد، وتغير الفن بتغير الحكم. حتى شكل العيون تغير، فالعين المستقيمة ذات الخطوط المباشرة اصبحت خطوط ملتوية ذات نظرة مزدوجة.

- نظرة مزدوجة؟ كيف ذلك؟

- مثلا حين تنظر بعينك اليمنى الى زوجتك، والى امرأة اخرى بالعين اليسرى.

- هذا أمر طبيعى، أليس كذلك؟

- كان غير طبيعى حينئذ. وقد تغيرت الشفتان أيضا لتتحول الابتسامة إلى تقطيبة، وكانت اليد مفتوحة فأصبحت مغلقة والإصابع ممسكة بهراوة.

خرجت كلمة هراوة من بين شفتيه مع دخان الغليون، فانتفض رجل البوليس واقفا دونما سبب، مخفيا الهراوة فى يده وراء ظهره.

- ماذا تعنى من كل ذلك؟

- أصبحت أم الهول هى أبو الهول، تغيرت الميم الى باء، وكان الطوفان يكتسح كل شئ، والزراعة تموت، ومياه الأنهر تتحول الى سائل أسود له طعم حادق كالملح، وأمر الإله الجديد بإزالة النهدين من فوق التماثيل وإضافة عضو الذكر.

تصلبت أصابع رجل البوليس وهو يدق فوق الآلة

لم يكن بمقدوره أن يدق كلمة العضو. واستدار داخل الكرسى بحركة دائرية. لم تظهر الحركة فى الصورة داخل الصحيفة. لكنها استطاعت أن ترى كل شئ وهى نائمة، عيناها نصف مغمضتين. وفى الحلم تبدو لها الحقيقة أكثر وضوحا.



فى الحلم كانت تبحث عن شئ تقوله لزوجها، فقد انقطع الحديث بينهما منذ بدأ. لم يكن هناك طريقة لجذبه اليها إلا الإختفاء. كانت فى حاجة أيضا إلى جذب الآخرين، والأخريات من النسوة. تدخل عليهن كل يوم فى المكتب. شفتاها تنفرجان عن ابتسامة أو تكاد، لولا التكشيرة فوق جبينهن، وعيونهن المنكسة فوق الكتاب، أو وجه صاحب الجلالة يتدلى فوق رؤوسهن، أو صورة الإله إخناتون قبل إزالة النهدين، أو إبنة أم الهول التى نزعت عن أمها اللحية المستعارة وكشفت عن أنها امرأة. (مريت - را) إبنة حتشبسوت؟!

كانت تفتح الباب كل يوم وتطل على تمثالها. الإبنة الوحيدة التى تعرفت على وجه أمها. تجلس الى مكتبها تتطلع الى وجوه النسوة. لون البشرة أصفر كأنما من الصلصال. رؤوسهن نحتت من الحجر الجيرى. يغوص فى أعماقها إدراك أنها واحدة منهن. تبتلع لعابا مرا يفيض كراهية للذات. لكن عيد صاحب الجلالة يأتى وتنتشر الأضواء. صوت الغناء والموسيقى يتردد فى الآذان. يرتدى الأطفال الملابس الجديدة. العيد فى الشوارع غيره فى البيوت. لاشئ فى البيوت إلا أزواج يخفون وجوههم وراء الصحف. يلفون رؤوسهم بسحائب من الدخان. تقف الزوجات فى المطبخ. يسلقن الفراخ المثلجة لها رؤوس من البلاستيك. علب السردين من الصفيح المغنط. بعد الأكل هناك سفينة للنزهة تبحر ولاتعود. فى الطابور الطويل تسقط الشهيدات. وفى نهاية العيد هناك الأتوبيس المتهالك الذى يسقط بمن فيه. قبل انصرام اليوم تذبح الأم أطفالها ثم تلقى بنفسها فى اليم. لكن ماأحد يرغب فى ارتكاب معصية، والكل يؤدى الفرائض. يرسم فوق وجهه علامة الإبتهاج. يرسمها بالقلم الملون فوق بشرة مشققة. وجوه كثيرة تطل فى العيد من عربات الأتوبيس. وفوق المراجيح. وفى الاحتفالات الرسمية. لم يكن هناك شئ يبدد الفرحة إلا وجه امرأة مكشوف.



- أتعتقد أنها ارتكبت معصية؟

- بالطبع، هذا طبيعى.

- ماذا تعنى؟

- بصرف النظر عن كشف الوجه فالنسوة بالطبيعة آثمات، إن كيدهن عظيم.

إختلط عليها الصوت. لم تعرف أهو زوجها أو رئيسها فى العمل. كان الوجه مثل كل الرجال الآخرين. مكشوف مع جحوظ العينين. يبدو كمن صحا من النوم فجأة. يظهر على الدوام غيرة عليها من الرجال. قد يغار من صداقة تنشأ بينهما وبين الكائنات الأخرى، كالزواحف مثلا. عداء قديم غير مفهوم بينه وبين السحلية. وهو من النوع المكتوم، كعادة الأزواج أو الرؤساء. لايطلع أحدا على خلجات نفسه. إلا أمام رجل البوليس فى التحقيق، حين بدأ يعترف لأول مرة.

- يراودنى الشك.

- لم نسمع منك هذا من قبل.

- هذا العيد مثلا ..

- ماذا فى العيد؟

- يجعلنا نعتقد أن شيئا ما موجود، بينما لا وجود له، ولهذا فإنى أفضل العمل فى شركة النفط.

- النفط؟

- نعم، إنه سائل بلا قوام لكنه يبعث أكثر على الطمأنينة.

- لا أفهمك.

- لا أستطيع التعبير عن نفسى بصورة أدق.

- أتعنى أنك متورط مع المرأة؟

- لا، ولكن حين يزداد التدفق فأنت نفسك تصبح مثل النفط، وهكذا يتبدد القلق بشأن الموت.

- لابد أنك مقتنع بما تقول، وأحسب أنك أقنعتها، فخرجت فى إجازة أليس كذلك؟

- لم تكن فى حاجة إلى إقناع منى.

- كيف؟

- اعتقد أن فيها شئ يشبه النفط مثل سائر النسوة.



أمسكت رأسها بيديها الإثنتين. لأول مرة تسمع رأيه فيها وهى غائبة. كان حضورها الدائم يحجب الحقيقة. وأصبح الغياب فى حد ذاته هدفا. قد يكشف فيه عن خلجات نفسه. كان بينهما مايشبه الثأر، يرتدى ثوبا آخر أكثر رقة. وينتهى الحوار بينهما بالصمت. تخرج من البيت إلى العمل كل يوم كأنما تخرج من قبضة لتسقط فى قبضة أخرى. والسقف واحد يشبه القبو. تشد نفسها من القبو لتصبح تحت قبو آخر. والضجة تشبه الصمت.

لم تكن طلبت أجازة فى حياتها قط. وهى إجازة لم تعلن عنها لأحد،

لكن الحسد ظهر على الفور فى عيون النسوة. يتخفى تحت طبقة من اللوم، وكلهن رغبة فى المعصية، يضقن ذرعا بالفضيلة، لولا أن طلب الإجازة كان يستوجب التصريح، وجرأة غير مسبوقة للحب.

- الحب؟!

أجل، كان يمكن لقلبها أن يخفق، فالأمر بسيط للغاية. والحب لم يكن معدوما بينها وبين الرجل. كان يربطهما بقوة الى حد وقوع خصام كل يوم. ولا فكاك من التواجد معا تحت سقف واحد.

- كيف كانت العلاقة بينكما ؟

- شرعية بالطبع.

- أهناك عقد مكتوب؟

- بالطبع.

- من أى نوع؟

- عقد عمل وزواج.

تتسع عينا رجل البوليس ويشتد جحوظهما. ثم يدور بالكرسى، «والننى» يدور حول نفسه، وتستقر عيناه فى السقف.

- أتعنى أنها كانت تعمل عندك؟

- كلنا نفعل ذلك، أليس كذلك؟

- لكن نحن ندفع شيئا على الأقل.

- لزوجاتنا ؟

- لعشيقاتنا على الأقل، أليس كذلك؟

لم تكن بها رغبة لمتابعة التحقيق. بدا لها الهروب نوعا من المستحيل. حركت قدميها فوق الأرض فلم تتقدم خطوة واحدة. كان النفط قد امتص قوتها، وانتهى الرجل من ملء البرميل. وقف ينتظرها وهى لاتتحرك. راح يحدق فيها طويلا، ثم رفع ذراعه الى أعلى.

كانت لديها فكرة المقاومة، ورد الصفعة بالصفعة. لكن ذراعها ظلت ملتصقة بجسمها. ربما هى لزوجة النفط تجعل الأشياء تلتصق. أو لأن حركة ذراعه جاءت مباغتة، ولم يكن أمامها وقت للحركة. فى أعماقها أرادت الانقضاض عليه. لم يتحرك فيها شئ إلا الفكين. وانطلقت الصرخة من الحلق.

- لاتصرخى.

- أتضربنى؟

- ماعليك إلا حمل البرميل؟

بدت فى وقفتها كاملة الخضوع. لم تظهر مقاومة ما. كانت فى حالة أشبه بالنوم، أو أن الصفعة غير المتوقعة انتزعت منها إرادتها جعلتها تبرك كالجمل. وضع الحواية فوق رأسها ومن فوقها البرميل. وكان عليها أن تمضى

قدما مع النسوة الى الشركة، وكل واحدة منهن تقول كلمة، لمجرد الثرثرة فى الطريق.

- أتفهمين؟ لن يضربك إذا واصلت العمل.

- هل أنت عصيت يا أختى؟

- ليس من الضرورى أن تحدث المعصية، يكفى أن تفكرى فيها.

- أحيانا يكون الفكر أخطر.

واصلت السير بعنق ملتوى وأنفاسها تلهث. يتقلص صدرها هبوطا وصعودا مع حركة التنفس. تدفع بفمها المزموم ذرات النفط المتطايرة حولها، تنفخها بعيدا عن وجهها. قدماها مشدودتان إلى الأرض، تغوصان الى ماتحت الركبتين. تركت نفسها تغوص. لاشئ امامها إلا أن تغوص. أن تصل إلى القاع، ومن بعد القاع لايكون هناك طريق آخر الا الصعود.

- منذ جئت لم آخذ أجرا!

- ألا يكفيك أن أتستر عليك؟

أرهفت السمع للكلمة «أتستر»، اتسعت عيناها بزواياها الملتهبة، لم يكن هدفها الستر. كان لها هدف آخر. عن يقين كان لها وان لم تعرف ماذا كان. قدماها تتحركان دون أن تخطو فوق الأرض شبرا. والهواء لايكفى لشهيق عميق. تورم قدماها وتساقط عنهما الجلد. زحف النفط تحت أظافرها كالطين الأسود. البرميل فوق رأسها ثقيل. يسخن دماغها تحت

الشمس. شفتاها زرقاوتان مفتوحتان وأنفاسها متلاحقة. ضغطت بأسنانها على شفتها السفلى فانفجر منها الدم، لونه أزرق ينساب فوق ذقنها ساخنا. له طعم حادق على طرف لسانها. فوق سطح البركة رأت صورتها منعكسة. كالشبح الهائم على وجه الأرض. خيل إليها أنها تصرخ.

- النجدة!

حركت عنقها ناحية الرجل. لم يعد يسمعها. وإن سمع الصوت لايبدو عليه الفهم. يحملق فيها بنظرة لم ترها من قبل. أيفكر فى قتلها؟

رفعت ذراعها وهمت بإلقاء البرميل فوق رأسه. بدت لها الحركة مشروعة تماما. مجرد دفاعا عن النفس. قبل أن ترتفع ذراعها عاودت النظر فى عينيه، ثم تراجعت الى الوراء. عيناه لم ترهما أبدا بهذا الشكل. لم تكن الرعدة ظاهرة. لا شئ فيهما يعبر عن الخوف. لكن كل شئ فيه كان كأنما مات من الخوف.

امتدت يدها وأمسكت يده. تشابكت أصابعهما. حوطها بذراع واحدة وحوطته بذراعيها الإثنتين. أغمضت عينيها، وكان هو مغمض العينين. كانا يسيران متعانقين، لا يريان الأرض تحت أقدامهما. يغوصان معا إلى أغوار البركة كأنما يسقطان فى قبضة قوة أكبر منهما، لا يستطيعان الفكاك منها.

فى تلك اللحظة أصبح كل منهما يمسك بجسم الآخر. يشتد التماسك.

يصبح الجسدان كتلة واحدة تتشبث بأجزائها، لايبغى الانفصال عن جزء منها.

- أكان ذلك هو الحب؟

ربما كان، لأنها لم تسمع صوت النسوة. كانت مغمضة العينين، غائبة فيما يشبه الإغماء. ثم بدأت أصوات النسوة تدنو منها. مجرد أصوات بلا أجسام. أسندت رأسها فوق حافة البركة، كأنما تهم أن تأخذ شربة ماء، أو تقذف الغصة من حلقها. سمعت صوتها يخرج من جوفها كأنما تتقيأ. تخفف صدرها من الألم وبدأت الأضواء تظهر. كان الطابور يتحرك من بعيد فوق الخط الفاصل بين السماء والأرض. أشباح سوداء فوق رؤوسهن البراميل. يقتربن منها والملامح تزداد وضوحا.

- ماذا تفعلين هنا يا أختى؟

رأت المرأة واقفة أمامها تحت عباءة سوداء لا يظهر منها شئ.

- أنا؟

- نعم أنت؟ من غيرك؟

- أنا باحثة فى علم الحفريات.

دوت ضحكة واحدة تبعتها ضحكات خافتة مكتومة.

- ألم تحبلى يا أختى؟

لطمت الكلمة وجهها مثل الصفعة. تحبلى؟ أيكون ذلك هو سبب

احتجازها هنا؟ كانت قد أضربت عن الحبل منذ ماتت أمها وهى تلدها. لم تكن تعرف ما جدوى الحبل. كل النساء يحبلن.

- هل ينقلب العالم إذا كفت امرأة واحدة عن الحبل؟!

- أيتها الحمقاء!

تجردت فجأة من الظلمة. ظهر ضوء من بعيد. حملقت ناحية المرأة. ثم انحنت جالسة فوق الأرض. تحت إليتها عثرت على شئ صلب. كان هو الأزميل، رأسه ملفوف بحزام الحقيبة، مشدود حول عنقة كحبل المشنقة.

- مَن منا الحمقاء؟

لم يكن هناك صوت. مجرد غمغمة كالصمت. أو ذرات سابحة فى الجو. واصلت الحديث وهى تضرب رأس الأزميل فى الأرض.

- أنا حمقاء؟ ألا يشغلك إلا الحبل؟ وأنا ماذا يشغلنى؟! أجل، أنا باحثة، باحثة عن ماذا؟ أجل أبحث عن أشياء لاتعرفيها. «نمو» إلهة المياه الأولى، وإنانا الإلهة الأم، وسخمت.

- سخماط؟

- أليس هذا دليل جهلك؟ خير لك أن تنصرفى عنى وتحملى برميلك الى الشركة. ستظل النسوة على حالهن الى يوم القيامة. أليس هناك من يقاوم النفط؟ ألم تفكرين أبدا فى التضامن؟ فكرى فى الأمر. لن تلومى إلا

نفسك إذا دفنت فى هذه البركة. سوف يسيطر النفط على كل شئ، ويشق طريقه الى كل مكان، ماذا حدث؟ لماذا لا تنطقين؟!

بدلا من أن ترد المرأة اختفت على نحو بدا طبيعيا. استدارت دون أن تخلف ورعها صوتا، ولا أى أثر لقدميها على الأرض.

- أتهربين دون كلمة واحدة؟!

صرخت بصوت عال متخاذل غير مسموع على الإطلاق. كفت عن الحركة وأعادت الأزميل الى الحقيبة. لسانها بدأ يحتك بسقف حلقها. صوت الاحتكاك فى أذنيها مسموع. لمحت الزجاجة فجأة فوق الرف. كانت جافة تماما. رفعتها إلى فمها تهزها عدة مرات. لم تسقط قطرة واحدة. انخرطت فى نشيج بلا صوت. بلا دموع بلا حزن، أو يأس أو أى شئ. لم تحس شيئا على الإطلاق. كانت امرأة أخرى تلك التى تنشج وليست هى.

إلتصقت بالأرض تتظاهر بالموت. تتكور حول نفسها أملا فى النجاة. حركت عينيها قليلا ناحية الباب. كان الرجل واقفا على العتبة منكوش الشعر. هل كان يتصنت عليها؟ تركت دموعها تهبط قبل أن تضيع الفرصة. لم يكن البكاء مجديا. تحركت شفتاها بما يشبه التردد. ربما كانت الابتسامة أفضل، لم تشعر بوخز الضمير، يمكنها أن تبتسم فى وجهه رغم كل شئ، لولا الإعياء الشديد، ونوع من التنميل كالشلل يسرى فى شفتيها.

كان وجهه للحائط وظهره ناحيتها. بدت الابتسامة غير ضرورية. كان

البرميل ساخنا بفعل الشمس. وأنفاسها تتقطع مثل بقرة تحتضر. لوت عنقها الى الناحية الأخرى للتخفيف من الثقل. فتحت عينيها لحظة في مواجهة الشمس.ثم أغلقتها على الفور باحكام شديد.

حين وصلت الشركة كان وجهها مثل سمكة مشوية. خداها عظامهما متفحمة. فوق رأسها تحت قاع البرميل حفرة عميقة. فى مؤخرة عنقها ورم ينز سائلا أسود. جلبابها تعلوه البقع، والرائحة تفوح مع العرق.

رمقها رئيسها فى العمل من بين أطراف جفونه المغلقة.

- عليك بارتداء ثوب نظيف وضعى بعض العطر تحت الإبط.

- نعم، . . . . .

- حان وقت وصول جلالته ولا نريد أن نؤذى أنف جلالته، أليس كذلك؟

لم تكن عضلات لسانها تطاوعها للرد، وخرج صوتها مكترما.

- فى ليلة . . . العيد . . . طلع . . . البدر . . .

تذكرت أغنية فى الطفولة، كانت تغنيها مع البنات فى المدرسة، حين كان يصل الرئيس، ويغنين فى نفس واحد: طلع البدر علينا ، ومن خلفه تقبل حرم الرئيس ترتدى دوائر من الضوء حول العنق واليدين والرجلين. من خلفها النسوة يتسابقن فوق الكعوب الرفيعة. ينكفئن على وجوههن وأردافهن تهتز من الخلف.

- طلع البدر علينا . . .

لم تكن تعرف لماذا ينثنى عنقها ويلتوى الى الداخل. بدت لو كانت تنحنى لأداء التحية، تخفى الورم البارز بين طيات العنق، تمسح الجلد بكفها تمحو البقع السوداء.

- لماذا كانت تشعر بكل هذا الخزى؟

كانت تظن أنها ضحية العيد، وعليها أن تخفى أثر الدم بعد الذبح. كان يمكن لها أن تواجه الخزى، لولا الرجل. أجل، لولاه ربما استطاعت أن تنجو، وماذا بعد أن تنجو؟!

خطر لها السؤال فجأة، ولم تعرف ماذا تفعل لو قدر لها أن تنجو.

- سأكتب قصة حياتى.

سمعت الرجل يضحك بصوت كالسعال. كان منثنيا فوق البرميل يملأه، فارتج البرميل بالصوت. سمعت القرقعة داخل بطنه الممتلئ فأدركت أنه النفط أيضا يضحك.

- أتفكرين فى الكتابة حقا؟!

- أعنى، فى غير أوقات العمل، قد يهبط الوحى.

- الوحى؟

- أجل قد يهبط الوحى أحيانا على راعى بقر أو دودة نفط.

- هذا النفط يتغلب على أى وحى وإن هبط من السماء.

- قد يختلف الأمر، حين يأتي الوحى من بطن الأرض.

- ماذا تقصدين يا مره؟!

لم يكن عقلها قادرا على الرد، وبدا الحوار بلا معنى. السخونة فى رأسها تشتد، والوجع فى مؤخرة الدماغ كالمطرقة يدق. شدت المنديل وعقدته فوق جبينها، لم تعرف من أى حفرة فى رأسها خرجت فكرة الكتابة.

كان الوحى ينزل دون حاجة الى كتابة أو قراءة. يرفع صاحب الجلالة عينيه الى أعلى فإذا بالوحى يهبط من السماء كالمطر. يعبئونه فى الزجاجات. وفى العيد يصرفونه مع المنحة، يحصل الرجل على زجاجة كاملة لنفسه، ولإمرأته النصف. لم يكن للمرأة أن تتسلم نصيبها بنفسها، ولابدمن زوج ينوب عنها أو وكيل آخر.

- خداع الذات لايفيد شيئا يا مره، ثم إن مثل هذه الأوهام لا جدوى منها

- ماذا تعنى؟

- الكتابة مثلا ليست إلا نوعا من الوهم. واذا كان صاحب الجلالة لايكتب ولا يقرأ، وجميع الأنبياء، لم يكونوا فى حاجة الى الكتابة أو القراءة، ثم ماهو الفارق بين حمل القلم وحمل البرميل؟! هيا إنطقى! ولاتكونى غبية!

ثنت المرأة عنقها ولم ترد. كان الصمت شيئا طيبا للغاية، دفعها إلى اغلاق عينيها فى يأس كامل.

رفعت البرميل فوق رأسها واندفعت الى الخارج. من الناحية الأخرى من البركة هبت عاصفة جديدة. ليس أمامها إلا أن تمضي في الطريق حتى النهاية. لا يزال بعيدا عن عقول النسوة فكرة الكشف عن وجوهن. لقد حملن البراميل قبل طلوع الشمس واختفين فى الظلمة.

امتدت ذراعها الى أعلى، وهزت البرميل بقوة. لم تنسكب منه إلا قطرة متجمدة من النفط. كانت عيناها تتطلعان الى السماء. لم تر شيئا. قربت أصابعها من أنفها فانبعثت رائحة الجاز العفن.

- ما الذى يحدث لو استمرت حياتها بهذا الشكل؟!

ربما تكون هناك مؤامرة. رئيس الشركة له بشرة حمراء، يرطن بلغة أجنبية، وتقول الصحيفة أنه رجل كبير القلب. يتبادل البراميل مع صاحب الجلالة علامة الحب. وفى هذه المنطقة الأثرية أيضا رفات الموتى. وحفريات مقدسة من الآلهة القدامى. وبعض الإلهات من الزمن الحجرى.

- أجل، تغيرت المقدسات مع هبوب العاصفة.

- ألا يوجد حفريات هنا فى بطن الأرض؟

- لا يوجد إلا النفط يا مره.

- ماهذا ؟

- زجاجة اضافية فى عيد صاحب الجلالة. ألم أقل لك أنه كبير القلب

واسع الرحمة لا ينسى الرعية. ما رأيك فى جرعة صغيرة؟ لنحتفل معا بعيد جلالته.

إلتوى لسانها داخل حلقها. حركت قدميها فى الهواء مثل بقرة مربوطة الوثاق. هذا الرجل ليس زوجها وليس مندوب الشرطة. لماذا لا يفك وثاقها ويتركها تعود؟ إنها شابة فى ربيع العمر، وتحمل لقب «باحثة» ولها زوج ينتظرها

– سأملأ لك كأسا.

– أليس الشرب حراما؟

– مادمنا وحدنا ولا أحد يرانا، وإن كان الأمر يستوجب بعض الحرص.

أنهم يوزعون علينا هذه الزجاجات، ومعنى ذلك أن الشرب مباح ليلة العيد حتى يضرب مدفع الإمساك. هل أنت على قيد الحياة؟ أراك لا تتنفسين؟ خذى هذا الكأس، وإنسى كل شئ.

– سأنسى.

– أهذا وعد؟

هزت رأسها علامة الإيجاب. بدت ليلة العيد ملائمة تماما للهروب. بعد أن يشرب الرجل يفقد وعية. وليس عليها إلا أن تشترى تذكرة العودة. فتحت الحقيبة لتخرج النقود. لم يكن هناك شئ. قلبت البطانة وهزت الحقيبة. لم يسقط قرش واحد.

- أين النقود ؟

- ماذا تقولين؟

- أنا أعمل وأستحق بعض الأجر.

- أود أن أسألك سؤالا صغيرا لمجرد إرضاء فضولى.

- نعم.

- ألست أوفر لك كل شئ حتى الحب؟ هل ينقصك شئ؟ هيا انطقى ولا تكونى جاحدة!

- أنت رجل مثالى، هذا صحيح، ولكن أنا أعمل طول النهار وجزء من الليل. من يدفع الأجر؟

- أجرك على الله.

- الله؟! ماذا تقول يا رجل؟

- ألا تؤمنين بوجود الله يا مره؟!

صوته أصبح غاضبا، والنبرة مهددة. كانت تطالبه بأجرها، فإذا به يطالبها بالإيمان. ما علاقة الإيمان بالأجر؟ لم تكن تعرف. لكن الوضع انقلب. أصبح هو صاحب الحق. وهى لم تعد لها طلب. أجلسها فى قفص الاتهام، وراح يدور حولها نافشا شعره، مزمجرا بالغضب.

- امرأة مثلك لا يمتلئ قلبها بالإيمان، ماذا تستحق إلا الحرق فى النار! هيا انطقى ودافعى عن نفسك!

إلتوى لسانها فى حلقها وعجزت عن الرد. كانت مؤمنة تماما مثل الرجل

وأكثر. قلبها كبير، أكبر من قلبه، يتسع لإيمان أكبر من إيمانه، بل يشمل الآلهة القدامى أيضا، والإلهات. لكن ما علاقة الآلهة بالنقود ؟ وهى امرأة تؤدى عملها بالكامل. تحمل فوق رأسها البرميل، فى شركة رسمية للنفط، والعمل شاق، ازداد مشقة بعد قيام العاصفة، وكان يمكنها أن تتجنب كل هذه المشاق. ضربت بقدميها الأرض وهى تصيح:

– كل هذه المشاق!

– ولماذا أتيت فى الأصل؟

تجمدت فى مكانها لا تنطق. كان الرد واضحا لا يحتمل وضوحا أكثر، لقد جاءت لأنها عجزت عن الاستمرار هناك. أجل جاءت لتتجنب مشاقا أكثر، هذا كل ما فى الأمر.

– أهذا كل ما فى الأمر؟!

– نعم، كل ما فى الأمر.

بدا الأمر بسيطا غاية البساطة. انفرجت شفتاها عن تنهيدة عميقة تشبه الراحة. وانكفأت رأسها بحركة مباغتة فوق صدرها كأنما تنام. لكن الحركة أيقظتها فانتبهت. كان رأسها ثقيلا، والسخونة تتدفق من أعلى مع الثقل. كأنما تحمل قرص الشمس فى منتصف النهار، مع أن الدنيا ليل، والرجل راقد الى جوارها مفتوح العينين.

– ألم تحصلى على إجازة؟!

- ماذا تعنى؟

- هذا أمر يقلق صاحب الجلالة ورئيس الشركة بطبيعة الحال.

- ألم تنجح امرأة واحدة فى الحصول على إجازة؟

- كانت هناك إمرأة من أسرة فقيرة، وأهلها جميعا من اللصوص، قالوا إن عفريتا ركبها، فالعفاريت تتبع الفقر، واللصوص تتبع العفاريت، ومع ذلك لم تنجح فى الهرب.

- كيف كان ذلك؟

- نشرت الصحف صورتها وأعادوها قبل أن تجتاز الحدود.

- أتعنى أنه لم تهرب امرأة واحدة؟!

- ولا رجل واحد.

تهاوى جسدها وهى راقدة. كأنما تسقط فى نوم أعمق. تكورت حول نفسها مثل دودة النفط. أصبح وجهها بلون الأرض. ضغطت بيدها فوق صدرها، ثم انتفضت.

- لا يوجد نبض!

نهض الرجل من الفراش. بدأ يدلك قلبها بأطراف أصابعة. أخذتها الدهشة ولم تستطع الرفض. كان ينتهز فرصة غياب النبض ليدوس بإصبعه فوق نهدها. يمرره داخل الشق بين النهدين. كانت هناك طبقة متجمدة من النفط لها رائحة العرق. تململت فيما يشبه الحرج.

- كنت أنوى الاستحمام، لكن.

- لا داعي للحرج فأنا لست رجلا غريبا.

كان القمر يطل فوق البركة بضوء شاحب. بقعة مستديرة من لون متهالك البياض فوق مساحة كالحة السواد. والنافذة مصنوعة من ألواح الخشب لها مزلاج عريض، نمت فوقه طحالب النفط فاخضوضرت أطرافه. كانت النافذة واطئة فيها شقوق، تطل من بينها عيون النسوة. ثلاثة أو أربعة يضحكن بصوت مكتوم. واحدة من النسوة تتحدث الى جارتها في البيت الملاصق. تحكى لها ما يفعله معها زوجها في الفراش. تقطع الحديث بضحكات كالشهقات، ثم تجهش بالبكاء.

- عشر سنين مضت على زواجك ولم تحبلى؟!

- أمر الله.

- بل هي ضرتك الملعونة، سحرت لك.

- أهو سحر إذن؟ يا للمصيبة!

- أنت أسعد حظا منى، ولك ضرة واحدة وأنا لى ثلاثة ضرائر، وما أن أبطل سحر واحدة حتى يأتى سحر الأخرى.

- ومع ذلك حبلت أليس كذلك؟

صوتها يتسرب إليها من وراء الجدار يشبه صوت خالتها. كانت تلف حول رأسها الطرحة السوداء وتخرج. تجوب الأزقة تلم الودع والقواقع،

وعظام الموتى من بطن الأرض. تصحنها فى الهون ومعها الشبة واللبان الذكر. تشربها على الريق وقبل النوم. تبلل به وسادة زوجها وما بين الفخذين. كان لكل عفريت من الجن حجاب خاص. يكتبه شيخ أعمى فى غرفه مظلمة. كان الأعمى أكثر قدرة من المبصر على طرد العفاريت الجان. وكان الشيخ الميت اكثر قدرة من الأعمى بطبيعة الحال. وتدفع المرأة قطعة من الفضة أو فرخة مذبوحة. لم يكن للمرأة أن تحبل دون أن تدفع شيئا.

فى نهاية الليل انقطعت أصوات النسوة. جاء الصباح بشعاع أحمر يلسع مثل لسان من اللهب.

- أرجوك، هل لى فى شربة ماء؟

لابد أنه كان غائبا فى النعاس. لم تسمع أى رد. جلبابه ممزق من الصدر. غارق فى عرق أسود كالدم المتجمد. ذرات النفط تلتصق بالشعر، وشفتاه مشققتان مثل أرض قحط.

- ألم تسمعنى؟ قطرة واحدة لو سمحت.

صوتها جاف، وجسدها يرتعد بالحمى. تصعد السخونة من تحت الجلد، تذيب القشرة شيئا فشيئا. انفرجت شفتاها تلهث، ولعقت بطرف لسانها السائل الذائب.

- سأعطيك الزجاجة بشرط واحد.

- ماهو ؟

- أن تكفى تماما عن تلك المؤامرة.

- ماذا تعنى؟

- ألا تعرفين أنك مراقبة بدقة وحركتك مرصودة.

- مرصودة؟

- كل حركة، بل كل خلجة.

- خلجة

- نعم، عليك أن تنسى كل شئ عن أمك وخالتك وحتحور وسخمت وجميع النسوة، نعم، جميع النسوة، أتفهمين ذلك؟

هزت رأسها علامة الفهم. لم تكن تفهم شيئا. كانت تريد الزجاجة ولاشئ غيرها. خطا الرجل فوق الأرض نافضا عنه ذرات النفط. قرب عنق الزجاجة من شفتيها. التهمتها بأسنانها تهزها عدة مرات. تتلوى مثل دودة الأرض. كانت الزجاجة جافة بلا قطرة واحدة مقلوبة فوق فمها، قعرها سميك مرفوع الى السماء. ينفذ منه قرص الشمس مباشرة الى عينيها، كأنما هو عمود ممدود من نار الآخرة.

طوحت بالزجاجة في عين الشمس. أطرق الرجل رأسه فى خزى.

- ألم تكن تعرف أنها فارغة؟

- أعرف، لكن ...

- إذا افترضنا أن للمرأة روح مثل الرجل ..

- أجل.

- فلابد أن هذه الروح تسكن جسدها.

- أجل، لكن ...

- لكن ماذا؟

- بعد الاحتفال بالعيد ينسون الصغار من أمثالنا ويستولى على نصيبنا الكبار.

كانت تنظر فى عينيه، تدرك أنه يغطى بالكلمات على شئ آخر. كان يختفى فى الغرفة الخلفية، ويأخذ نصيبها. ثم يخفى الزجاجة فى مكان لاتعرفه. أيحاول السيطرة عليها عن طريق العطش؟

كان الرجل واقفا يحملق فى الفراغ. يتحاشى النظر الى عينيها. ربما كان يعلم كل شئ. له ضلع فى المؤامرة. فى اللحظة الحاسمة سوف يقف مع صاحب الجلالة أو على الإقل رئيس الشركة.

تصلبت عند مدخل البيت تلوى عنقها نحو الأفق. السحب تتراكم على شكل نطف سودا ء. ليس هناك مايشير الى هدوء العاصفة. ارتفع صدرها وهبط فى زفير عميق، مع كل نفس بدت روحها كأنما تخرج من جسدها.

ظلت مطبقة شفتيها فى صمت. لم يكن فى الصمت إنقاذ لشئ. عليها أن تكشف الأمر للجارات. ربما تستطيع النسوة عمل شئ.

- أجل، يمكنها اللجوء الى النسوة.

سمعته يقهقه بصوت قرقعة البرميل. تجمدت فى مكانها من الفزع. أيعرف النسوة أكثر منها؟ أيمكن أن تضحى بها النسوة إذا لزم الأمر؟

ظلت واقفه حيث كانت. لفت ذراعيها حول صدرها كمن تحس البرد. عيناها تتذبذان دونما وعى. تقدم قدما وتؤخر الأخرى. كالفأرة الواقفه امام ثقب فى الجدار. لاتعرف إن كان طريقا للهرب أم فوهه مصيدة.

غلبها الإعياء وهى واقفه. تساقطت قطرات العرق من جبينها. لعقتها بطرف لسانها تستشعر الطراوة. بدت كأنما استعادت شيئا من الثقة. عليها أن تتقدم وليكن مايكون. أجل، دون مخاطرة لاتحدث حركة.

حركت قدميها وتقدمت نحو الطريق. كان قرص الشمس يختفى وراء الأفق. رياح شمالية تهب مع ذرات النفط. على حافة البركة رأتها جالسة تفك الرباط الأسود من فوق وجهها. تدعك أنفها وزوايا عينيها. ومن حولها النسوة يفعلن مثلها، يكشفن وجوهن. تمسك كل واحدة الرباط الأسود بين يديها، ثم تهزه فى الهواء عدة مرات، محدثا صوتا مثل طرقعة الهواء. بدأت تدب بقدميها فوق الأرض. تدور حول نفسها دورة كاملة. والاصوات ترتفع كدقات الطبول. النسوة يرقصن على شكل حلقة، وأقدامهن تدب بالإيقاع ذاته. الغناء يتصاعد الى السماء مع الغبار.

- أهو قدرنا أن نحمل فوق رؤوسنا!

- براميل النفط الى الابد!

- لا يا أختاه! لا يا أختاه!

- ليس هو قدرنا! ليس هو قدرنا!

كان مدهشا أن تلمح ذؤابه الضوء فى الظلمة. أن تكتشف الصلة بين القدر والنفط. بدا لها جسدها مثل الجدار، منتصبا فى وجه العاصفة. لاشئ يمكن أن يسقطها.

فى تلك اللحظة ظهر الرجل رافعا ذراعه. كادت الضربة تفلق رأسها. لكنها وثبت متفاديه الموت. إنثنى فوقها فيما يشبه العراك. طرحته أرضا رغم الإعياء. خطف الأزميل من يدها ليجردها من السلاح، فأمسكت البرميل من أذنيه.

- القوة لاتهزمها إلا القوة.

دارت بها الأرض وهما يتصارعان. فى لحظة خاطفة أصبح فوقها. ملأه الغرور بامتلاكها فانتصب شعر رأسه. بدا فى انتصابه أشبه بعرف الديك. وكان يمكن للمعركة أن تنقلب إلى شئ آخر يشبه الحب. لولا أنها خطفت الأزميل من يده.

تذكرت فجأة أنها كانت تحمل لقب الباحثة. أنها خرجت فى إجازة. كان هناك شئ تبحث عنه. راحت الحمى التى انتابت جسدها تنحسر. بدا لها أن المرأة التى خرجت فى إجازة لم تكن هى الباحثة. أنها لاتستطيع أن تحب

الرجل دون أن يخضعها ، وإن بدت حركة الإخضاع بريئة، إلا أنها لم تكن بريئة تماما.

كانت مع رجلها الآخر تتفادى هذا الخطر. كان مصابا بفيروس مجهول الإسم، يندرج تحت بند الحب. لم يكن هو الحب على وجه اليقين. وإن لم يكن هناك مايثبت العكس. فى لحظة تتوقع فيها الحب تراه يجز على أسنانه من شدة الكره. وفى مرة انهال بأسنانه على كتفها فى عضة كبيرة. رقدت فى الفراش تهذى. تصدر أصواتا تشبه نباح كلب. وجاء الطبيب فغرس فى فخذها إبره ضد السعار. كتب فوق ورقة كلمات غير مقروءة، من نوع : الامتناع الكامل عن الحب وعن أكل المخللات المنقوعة فى النفط.

- بمقدورك النظر إلى دوننا ألم؟

نعم، فى أعماقها كانت راضية عنه. ويمكن أن تنظر اليه دون ألم. فلم يكن هناك بديل آخر. كأن الأمل معدوما تماما ، ولابد من كتابة العقد.

- ألا يكفى الوعد؟

- لابد من كتابة ورقة.

- ألا توجد عندك ثقة؟!

- ماذا تعنى؟

وقعت على العقد بحركة أشبه بتسليم الروح. كانت الصحف تنشر

بإسهاب عن حوادث الاغتصاب. اغتصاب الجسد بطبيعة الحال. فلم يكن أحد يعرف شيئا إسمه اغتصاب الروح.

- أتبولين وأنت واقفة؟ هذا ممنوع للنسوة!

من شق الباب كان يراها. لم يكن مسموحا للمرأة أن تقف حين تبول، وكانت هى تفضل الوقوف. فالمرحاض غارق فيها يشبه البركة. وإن جلست تخشى أن يلامس جسدها المقعد. كانت الصحف تتحدث عن الفيروس. ينتقل عن طريق الجلوس، وعن طريق الشيطان أيضا، ما أن ترفع المرأة ثوبها حتى يكون هناك متجسدا على شكل البشر.

- إذا اجتمع رجل وامرأة فثالثهما الشيطان.

لم يكن الجماع يتم دون وجود الشيطان. كالسير فى الظلمة فوق الجسر. فجأة يظهر الشيطان. واقفا منتصب الشوارب مثل قط جائع. الرجال والنساء على السواء أسرى الوقوع بين أنيابه. كل منهم يتشكك فى الآخر. من الذى بدأ. لاأحد يعرف عن يقين ما الذى حدث. ولإثبات البراءة يكتبون ورقة. من لايعرف الكتابة يستأجر قلما. والأقلام كثيرة. أكان هناك ولع الكتابة؟!

- لا، صاحب الجلالة نفسه لم يكن يكتب.

- ماالمشكلة إذن؟

- مجرد ضوابط.

– ماذا تعنى؟

ـ إذا هاجت الروح فلا حدود لهياجها، وإذا لم يكن هناك ورقة فلا ضوابط على الإطلاق. أليس كذلك؟

لم تفتح فمها لترد. كان قد رآها من شق الباب. لم يكن بمقدورها أن تتخفى. لامجال للحركة حين تلتف الشبكة. من السماء تسقط شباك الموت كالمطر الأسود. فى الزواج أيضا يبدو أن هناك شبكة. وهياج الروح مثل هياج العاصفة. ليس أمام الجسد إلا الخضوع. أو ربما هو هاجس غامض. ربما تكون الورقة هى الضمان.

– ليس هناك ضمان لشئ.

– ماذا تقول؟

– فى غمضة عين ينقلب كل شئ الى النقيض، كنت أراك شابة موفورة الحماس، فإذا بك كهلة عجوز. ألا ترين نفسك؟

كانت المرأة مستلقية فى الخلاء أمام البيت. تدلى طرف ثوبها فوق حافة البركة. تطلعت اليه بعينين متسعتين. عينا بقرة مذعورة. حملق الرجل فيها بعين واحدة جاحظة. عين قرموط من السمك مخنوق. فركت زوايا عينيها بطرف اصبعها. دققت النظر اليه. أيكون مثل هذا الرجل حقيقى؟! بدا لها غير حقيقى، ومع ذلك استمرت فى النظر اليه. وانهال تدفق النفط مع الريح. تسلل من تحت ثوبها الى السروال، وزحف فوق فخذيها. راحت تقاوم الزحف، لكن بعد فوات الوقت.

انتفضت واقفه تنفض عنها السائل الأسود. لكنه راح يزحف رغم إرادتها، يتكور تحت جدار البطن ويتراكم فوق الذارعين والكتفين. نشجت بصوت مبحوح. أصبح أكثر إصرارا. زحف فوق النهدين ومن هناك صعد الى العنق. أكان يخنقها؟

- لسوء الحظ ليس النفط رجلا حتى يمكن التخلص منه.

سمعت الصوت الغريب يخترق جسمها. بدا لو كان هو صوتها. أو صوت أمها وهى داخل الرحم. لم تكن هى أمها فيما يبدو. وإنما امرأة أخرى استعارت جسمها. وقد انتهت مدة الاعارة، وعاد الجسم الى صاحبته الأصلية. ربما كانت تخدع نفسها لمجرد الإفلات. لكنها لم تكن تنسى صوت أمها قبل أن تولد. كانت تعوم فى سائل غليظ القوام. وتغرق فى أحلام كثيرة. آخرها حلم بأنها تبول فى الخلاء وتخشى أن يراها أحد.

- أنا باحثة محترمة.

أجل، كم مرة حاولت أن تعرفه بنفسها. كم مرة أكدت له حقيقتها. وكونها باحثة فى علم الحفريات، ولها زوج ينتظرها هناك، ورئيس فى العمل يشهد بكفاءتها، وزميلاتها من النسوة عن يقين يتذكرنها، أيمكن أن تفقد النسوة ذاكرتهن أيضا؟

- أليس من العدل أن تدفع لى أجرى؟ هل يمكن أن أفقد عرق جبينى كل هذا العمر؟ وأنا لا أريد إلا تذكرة العودة.

بلل الرجل شفته السفلى بلسانه، وابتسم دون أن ينظر اليها. بدت ابتسامته مجرد تجاعيد فى الجلد حول الفم. لم يكن امامها إلا أن تمسك الأزميل، بينما هى ترفع ذراعها انطلقت منه الصرخة.

- أتنوين قتلى؟!

هبطت ذراعها ولم تنطق.

- من المؤكد أن الحوار انقطع.

- يمكننا أن نبدأ من جديد.

- كيف هذا؟

- يمكننا الوصول الى حد أدنى من الاتفاق. ليس أمامنا إلا هدف واحد. أن نحمى إنفسنا من الموت أليس كذلك؟ لحسن الحظ لازلنا أشداء، ولنا سواعد قوية ونستطيع العمل. وهذا هو الهدف من بقائنا هنا. فالنفط رغم كل شئ أفضل من كائنات أخرى أشد قسوة. ويمكن للنفط أن يترفق بنا إذا استسلمنا له، لكنك لاتكفين عن المقاومة.

- اتسعت عيناها ولم تنطق.

- نحن لانطلب إلا الرحمة، وكلنا نعلم أن المستفيد الوحيد من النفط هو صاحب الشركة، وصاحب الجلالة بطبيعة الحال، وهذا أمر منطقى. ما الخطأ فى هذا؟ إنه حقهم بأمر السماء، ألا تكفين عن الطمع؟!

لم تكن تعرف عن يقين أنه صوت الرجل. ربما يعود الأمر كله إلى

خيالها، وفى الخارج كانت أصوات النسوة كالغمغمة، وضحكات متقطعة كالنشيج.

- مابالك تدخلين فى أمور لاتخصنا.

- كيف؟ ألا نحمل البراميل؟

- عليها اللعنة، أصابتنا بوجع الدماغ وسوف تقضى علينا جميعا.

- لابد من التضامن لنصبح قوة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان الرجل قد شرع فى العمل. رأته يحرك ذراعيه بهمة جديدة، وعضلاته نافرة. مسح العرق بكم قميصه وتوقف فجأة. حرك رأسه ناحيتها. لمحها من بعيد تحادث النسوة. لعب الفأر فى عبه وحلق صقر فى الأفق على ارتفاع منخفض. فرد جناحيه الكبيرين وحجب الشمس. تطلعت المرأة الى السحب. بدا وجهها شاحبا تعلوه الذرات السوداء كالنمش. غامت عينيها واصبح الدم فى عروقها لونه أحمر. وانفتحت حقيبتها فجأة بقوة الريح. رأت أنفا طويلا يعبث بمحتوياتها يشبه أنف فأر. أخرج الأزميل. وراح يفتش داخل البطانة. اشتدت الريح وكادت تقتلعها من مكانها. تدفق الشلال كالمطر فوق وجهها. مسحته بكم جلبابها وفتحت عينيها. لم يكن فأرا وإنما هو الرجل. تكور حول نفسه فوق الأرض كالدودة، وراح يفتش جيوب الحقيبة.

- هذا ليس حقك!

- ما هذه الورقة؟

- لى أوراقى الخاصة.

- أعندك زوج آخر؟!

كانت له أصابع غريبة الشكل. والورقة كانت مطوية فى القاع تحت البطانة. لا يمكن لأى اصبع أن يصل اليها، إلا بعد تدريب طويل فى مدرسة البوليس. مدت ذراعها واختطفت الورقة. ألقت بها داخل حلقها وابتلعتها. هجم عليها بحركة مباغتة. أصبح فوقها يركبها كالحصان. أدخل إصبعه فى حلقها ليخرج الورقة، يدور به تحت اللهاة، وبين ثنايا اللحم. أنفاسه تتدافع من فمه المفتوح، كالبخار يندفع من فوهة القطار. ثم أخرج إصبعه فى النهاية بشئ صغير ، يشبه حبة الفول، أو قطعة متجمدة من النفط.

- أنت تستحق الشكر رغم كل شئ.

قالتها بصوت مفعم بالصدق. بدا جسمها أكثر قوة. وأنفاسها تدخل صدرها وتخرج بسهولة أكثر. لقد استطاع أن يخلصها من الغصة فى حلقها.

يبدو أنه لم يسمعها. كان يرقب حركة الورقة داخل أحشائها. لم يحدث

قط أن انتوى خداعها بهذا الشكل. سيراقب مواعيد دخولها الى المرحاض. لن تفلت منه الورقة بأى حال.

- لنفرض أنها عقد زواج فمن هو الرجل؟ وإن لم تكن عقد زواج فماذا تكون؟ رسالة حب؟

بدا الحب فى عينيه أقل خطرا من الزواج، فليس فى الحب شئ ملزم. أخرج من جيبه سجارة. انتفضت أصابعه وهو يشعل الكبريت. كان جالسا فوق برميل مملوء. وانتشر الدخان من حوله على شكل دوائر، ثم رفع عينيه الى الأفق. كان الصقر قد حط فوق حافة البركة، وراح يأكل شيئا صغيرا، يتلوى بين أسنانه كالدودة.

- إذا كان الأمر فى نهاية المطاف مجرد الحب، فأى نوع من الحب يكون؟!

هكذا راح يسائل نفسه وهو ينفث الدخان. لم يكن يعرف من الحب إلا نوعا واحدا. ذلك الذى لا يدفع فيه شيئا.

تعبت المرأة من الوقوف فجلست فوق المقعد. من وراء الباب كان يرقبها من شق المفتاح. ربما تكون الورقة قد هضمت تماما. أو ربما الكلمات ذابت مع ذوبان الحبر. رآها تضغط بيدها فوق أحشائها، كأنما تثبت الحروف فوق الورقة، تحميها من الزوال. إلهذا الحد يكون الحب؟!

سمعها تدندن بصوت مرتفع. بدأت تغنى أغنية كانت تغنيها فى

الطفولة. ترفع صوتها فتغرق الأصوات الأخرى فى الصمت. من وراء الباب يتسرب غناؤها. لقد أنقذت الورقة وما عليها من حروف. وطرأت لها فكرة وهى جالسة. ستكون ليلة العيد أفضل وقت للهرب. فالرجل يذهب إلى الحفل. إنها دعوة صاحب الجلالة، ولا يمكن أن يتخلف. يرتدون الثياب اللامعة والأحذية الجديدة، يجلسون الساعة وراء الساعة والأبواب مغلقة، لا يمكن أن يخرج وإن جاءه مغص. يتلوى فى مقعده الساعة وراء الساعة. وقد يفلت منه البول قبل وصول صاحب الجلالة. يتحسس الواحد منهم المقعد من تحته. ثم يقرب إصبعه من أنفه خلسه. تتسع عيناه فى فزع. ليست هى رائحة البول. فوق إصبعه يرى طبقة سوداء، لاهى بالسائل ولا هى بالصلب، ولها رائحة النفط. لكن أحدا لا يستطيع النطق. يمسح كل منهم إصبعه فى سرواله خلسة ويبقى فى مقعده جالسا ينتظر فتح الأبواب.

- ربما تجتاز الحدود قبل عودته من الحفل.

كان الرجل ثابتا وراء الشق فى الباب. لم يعرف تماما متى يمكنه الانقضاض. بدت له المرأة نائمة وهى جالسة. رأسها يتدلى فوق صدرها، وعيناها مغلقتان. كان يفكر أيهما أكثر خطورة. أن تكون رسالة حب أم عقد زواج. ربما كان بمقدوره أن يكشف عن الخطرين معا، اذا كان الرجلان واحدا.

فى تلك اللحظة هبت العاصفة فانسد الشق من الباب. بدا الطريق أمامه مسدودا تماما، ولا شئ يراه إلا الظلمة. سمع المرأة كأنما تضحك من وراء

الباب. أتكون هناك علاقة بين الحب والنفط؟ أصابته الفكرة بالرعب. وتراجع الى الوراء خطوة، فإذا به ينقلب فوق ظهره.

لم تره المرأة حين انقلب. تصورت أنه لا يزال وراء الباب. كان الألم يمزق أحشاءها. وأنفاسها تتلاحق كأنما تشهق. لم يكن هو الضحك أو النشيج المتقطع. كانت تحاول الصراخ طالبة النجدة، لولا أنها تذكرت أنه وراء الباب ويمكن أن ينقض لسماع الصوت.

- كيف تشد السيفون بلا صوت؟!

لم يكن هناك ماء بطبيعة الحال، ولا شئ تزيل به الأثر. لم تشأ أن تفتح الباب وتخرج بوجه برئ. أكثر ما كان يقلقها هو الرائحة. مزيج من العرق والنفط وبقايا السردين والمخلل. أكانت رائحة منفرة؟! بالطبع لا. كانت شديدة الألفة تحس نحوها بالحب. لكن الرجل وضع يده فوق أنفه وصرخ فيما يشبه النجدة. فانتهزت الفرصة ووثبت خارج الباب.

كانت الشمس تنكسر عند المغيب. وفى ضوء الغسق بدأت تتحسس موضع قدمها على الأرض. عثرت على البقعة المحددة فوق الخريطة. رفعت ذراعها وضربت بالأزميل المرة وراء المرة. وفجأة أحست به يرتطم بشئ صلب. كان تمثالا صغيرا من البرونز. النهد البارز بوضوح لا يقبل الشك. والردفان أيضا يؤكدان أنها إمرأة. فوق رأسها تحمل قرص الشمس والقرنان يلتويان الى الأمام. لابد أنها الإلهة حتحور، مَن غيرها؟ كانت فى الرأس حفرة، والجلد تآكل بفعل النفط ومياه المجارى فى بطن الأرض، لكن الوجه

كان مستديرا ، والابتسامة فوق الشفتين، والذقن والأنف يتسمان بالرقة، والحزام حول الخصر النحيل، والثعبان الملفوف والمعقود حول الجبين. فوق الصدر لم يكن هناك إلا ثدى واحد. ربما أكل النفط الثدى الآخر. لكن الحروف كانت محفورة فوق الحجر. والإسم داخل برواز. الإله ذو الثدى الواحد. اتسعت عيناها ودققت النظر. أدركت أن الثدى قد أزيل بفعل فاعل. كانت هناك النية لإزالة الثانى، لكن الوقت لم يكن كافيا لاستكمال الإزالة. كانت هناك محاولة أيضا لمسح الابتسامة، أو رسم خطوط حول الفم ليكتمل العبوس، لكن الجسد ظل كما كان ممتلئ الردفين، والروح ترفرف حول النهد الواحد كأنما هو ثدى الأم.

- سيجذب هذا التمثال كثيرا من السياح، ويأتى الفوج بعد الفوج، وتتدفق العملة الصعبة.

- ماذا تقول؟

- ألا تفهمين كلامى؟ ماذا حدث لك؟ هل أنت مريضة؟!

- لا ، ولكنى طلبت إجازة.

- ماذا تقولين؟

- مجرد طلب.

- هل فقدت عقلك؟!

لم يكن رئيسها فى العمل يدرك ما تقول. كانت قد اكتشفت علامات

التزييف، وتحويل الإلهات الى آلهة. لم يكن لها أن تحكى لزوجها عن رئيسها فى العمل. لم يكن الزوج يطيق الحديث. ورئيسها لم يكن يطيق سماع إسم زوجها. ولم تكن هى تطيق سماع الرجلين. كل ما كانت تريده هو الورقة، تكتب عليها الطلب، فلم يكن هناك إجازة دون ورقة مكتوبة، يحدد تاريخ المغادرة، وتاريخ العودة، والمكان المقصود، ولا يمكن ترك العودة بلا تاريخ محدد، ويمكن للرجل أن يغيب سبع سنوات، ثم يعود فيجد زوجته بحكم القانون، أما المرأة فلم تكن إجازتها إلا يوم جنازتها، والفرق مجرد حرف واحد فوق الآلة الكاتبة، وينقلب الفرح الى مأتم.

اختفى الضوء فوق متن كثبان النفط. فضاعت معالم الطريق فى الظلمة. توقفت عن السير. كانت الريح تصفر دون أن تسمع شيئا. قناة الأذن إنسدت تماما وكانت فى حاجة الى حاسة السمع. إيمكن أن تهرب دون أن تتسمع الأصوات؟ نظرت الى الساعة فى يدها. عقرب الساعات يشير الى السابعة، وعقرب الدقائق متوقفا، وعقرب الثوانى تآكل حتى النهاية. لو كان بمقدورها عبور الحدود قبل طلوع النهار؟ لن تسعى الى التشبث بالنفط مثلما تشبثت بالحب. فالطريق أمامها يبدو منزلقا، الانحدار شديد، والكثبان عالية، ليس هناك فارق بين الصعود أو الهبوط، وهى تترك جسدها يتحرك كما كانت تتركه وهى طفلة. رأسها يرتطم بالظلمة، وقدماها تغوصان لما فوق الركبتين.

حل الليل. وامتد النفط بلا نهاية. أمواج فوق أمواج. ولا أثر لأضواء

القرية. ولا البيوت، ولا الجسر. أغمضت عينيها. وتصورت زوجها يصحو من النوم فلا يجدها. سيلوى عنقه ناحية باب المرحاض. إذا كان مغلقا يدرك أنها هناك. وإن كان مفتوحا يظن أنها فى الحمام. أو ربما فى المطبخ. كان قادرا على تحديد مكانها دون أن يفتح عينيه. وإذا فتح عينيه فلا يمكن رؤيتها إلا من وراء الباب.

لم تخطر له قط فكرة فقدانها ولا فى الحلم. فالمرأة لم يكن مباحا لها أن تكون مفقودة. ليس لها مكان آخر تفقد نفسها فيه، وإن وجد المكان فليس هناك الرجل الآخر، وإن وجد الرجل فليس هناك الورقة. ولم يكن للمرأة وجود دون ورقة.

- ولم يشك هو فى وجودها أبدا، أليس كذلك؟

كان فى استطاعة زوجها حين يمد ذراعه وهونائم أن يمسكها. كان فى استطاعتة حين يصحو ويمد ساقه أن يركلها. فالمكان ضيق تماما، يزداد ضيقا بمرور الوقت ومع ازدياد حجم الجسم، وتراكم الشحم، وقلة الحركة، وفى ليلة العيد يحملها فوق ظهره، كما لو كانت خروفا، يضعها فوق الميزان، وبالثمن الذى يقبضه يشترى تلك الآلة الجديدة.

- أى آلة تلك؟

- تلك التى يدق عليها بأصابعه فتكتب له دون أن يتعلم الكتابة.

أجل، كان الحلم مشروعا تماما. والآلة لم يكن لها فم مثل المرأة لتأكل

ولا لسان يتكلم. فوق كل ذلك تكتب بخط واضح. وإذا لم تكتب فهى تظل في مكانها لا تبرحه. وإن تآكلت مع الوقت يمكن استبدالها، ويصبح بمقدوره الاستغناء عن المرأة تماما.

- إنها نوع جديد من الماكينات، ولها زر للكتابة، وزر للقراءة، وزر للشطب، وآخر للمسح . . . .

- ومن يطبخ لك؟

- وهناك زر أبيض تضغط عليه وتطلب ماتشاء من الاطعمة، وتأتيك الوجبة ساخنة تماما، ومعها الصلطات والمخللات وكل شئ.

- والجنس؟ أعنى الحب.

- هذا له زر آخر لونه أحمر.

كانت المرأة ترهف أذنيها، والأصوات تأتى عبر مسافات تستغرق زمنا طويلا. كانت من المهارة بحيث استطاعت الخروج فى إجازة. أجل، فإن البقرة الأليفة قد تخرج يوما فى إجازة، والماكينة أيضا قد تكف يوما عن العمل. لايمكن لأحد أن يتهم إحداهما بسوء الخلق. لكنها كانت لسوء الحظ امرأة، ولايمكن لها أن تكون بريئة.

- إذا هجرت المرأة فراش زوجها ليلة واحدة تعلق من شعرها يوم القيامة وتحرق فى النار.

كان هو صوت زوجها فى أيام الحب، لم يكن يطيق أن تغيب عنه ليلة

واحدة. لكن ذلك كان قبل أن تكتشف تلك الماكينات. وقبل أن يصبح للنفط قوة تشبه الكهرباء، وكانت هي شابة هادئة الطبع، مطيعة تماما لأوامر زوجها ورئيسها في العمل. باحثة محترمة من الدرجة الأولى. لها إسم في السجل مع صورة مومياء. وقد أعجب بها الجميع، لم يكن لها أعداء، ولم يكن لها أيضا أصدقاء، فلا شئ يلوث سمعة المرأة الا الاصدقاء. وفوق كل ذلك لم يكن لها شأن إلا بالتنقيب عن الحفريات.

- والآلهة؟ وصاحب الجلالة؟ ألم يكن لها بهم أى شأن؟!

- ماذا تعنى؟

- أعنى، ألم يكن لها اهتمام بالسياسة؟

- أتقول السياسة؟! ألا تعرف أنه محظور على النسوة تعاطى السياسة؟!

- ألم تكن تقرأ الصحف على الأقل؟

- لم تكن تقرأ ولا تكتب.

- كانت جميلة إذن.

بدا لها الحوار غريبا، وإن كان طبيعيا تماما. لكن الأمر لم يكن سهلا. فالمرأة لاتستطيع أن تكون جميلة إلا من خلال مرآة جيدة النوع. وكانت المرايا تفسد مع الوقت. تزحف اليها الذرات السوداء مع هبوب العاصفة. يبدو وجهها مليئا بالبقع. تتزايد البقع بمرور الأيام. تنتشر فوق الأنف،

والخدين وتصعد إلى الجبين تغطيه، تطمس الملامح كلها والعينين. لايبقى منها إلا عين واحدة، أو نصف عين.

تجمدت فى مكانها واقفة. لمحت صورتها منعكسة على السطح. أهو وجهها؟ لم تكن ترى إلا نصف عين، وفوق رأسها البرميل، وعنقها يلتوى الى ناحية. أتكون واحدة من الجارات وليست هى؟ ضربت بيدها المرآة فكسرتها. أجل، ماجدوى المرآة لامرأة لم تعد ترى وجهها؟

- لابد أن هناك سبب يدعو المرأة الى اخفاء وجهها عن العالم.

- أجل، بالتأكيد.

- هذا دليل على فجور النسوة.

- أجل.

- طيب، إذن هل عندك خبر جديد؟

- أبدا، لم يعثروا لها على اثر بعد.

- ماهذه الماكينة؟ يبدو أنك اشتريت آله كاتبة جديدة.

- أجل، وهى تكتب وتشطب وتمسح وتغسل وتطبخ، وكل شئ.

- يمكنك إذن السفر والاستمتاع بإجازة، وعندى استراحة بعيدة فى الخلاء.

- أتعنى جار سونيرة؟

- لقد أصبح لها إسم جديد، ألا تعرف ذلك؟

- نعم، استراحة. هذا اسم أفضل، ويمكن أن أدفع لك بعض الأجر، رمزى على الاقل.

- لامانع، إن كنت تصر، وقد ارتفعت الأسعار بإرتفاع سعر البرميل.

- أجل، وهذا أيضا بسبب فجور النسوة، ألم تسمع عن هذه البدعة الأخيرة؟

- نعم، بدأت النسوة تطالب بأجورهن.

- سيؤدى ذلك الى أرتفاع الأسعار بشكل جنونى.

- لاتقلق، فهناك ماكينات جديدة ستحمل البراميل فوق أربع أرجل من الكاوتش بدل النسوة، وتمشى بقوة النفط.

- هذا من فضل الله علينا. ألا ترى أن الله معنا دائما ؟

★★★

واصلت التسمع عبر المسافة الطويلة. توقفت تمسح بكفها العرق. أمن الأفضل ألا تعود؟ تلفتت حولها تقدم رجلا وتؤخر الأخرى. كانت تقف فوق حافة البركة. تطلعت عيناها الى السماء تراقب ظهور الأضواء. ربما كانت طفولتها هى السبب. لم تكن قادرة على نسيان طفولتها. كانت تصعد عند الغروب فوق الجسر، وتجلس تنتظر. حقول الزرع ممدودة بامتداد النهر. أسفل المنحدر ترقد البيوت متلاصقة متساندة بعضها الى بعض. فوق الأسطح

أقراص الجلة والحطب وأبراج الحمام، والأرض ترابية يتصاعد منها الغبار ورائحة الخبيز والروث، يتطاير منها الذباب والبعوض، والصراصير الطيارة السوداء. البركة الكبيرة وراء الجامع يلعب فيها الأطفال يتصاعد منها نقيق الضفادع مع أصوات الضحك والبكاء. من الطريق الزراعي تنبعث أصوات العائدين من الحقول، تثير أرجلهم الغبار، وأرجل الجاموس والبقر، تختلط أنفاسها مع أنفاس البشر. وهي جالسة فوق الجسر تنتظر. تتابع بعينيها ارتعاشه النجوم فوق رأسها، وأسفل المنحدر ترتعش ذؤابات الضوء في البيوت، وصوت الناي يسترسل في ظلمة الليل، وغناء النسوة الحزين يجلسن في العتمة وظهورهن الى الجدار، وخالتها تربط رأسها بالمنديل، وهي فوق الجسر جالسة لاتريد العودة، مرتديه جلبابا ملطخا ذيله بالطين، تمشي به كل يوم من الدار الى الحقل، وفوق رأسها تحمل زكائب المحاصيل، وفي المساء لاتلعب مع الأطفال، فاللعب لم يكن إلا للصبيان، ولا شئ يساوي عندها الجلوس فوق الجسر، عيناها مثبتتان في اتجاه الافق، قلبها ينبض بقوة، والاضواء تنتشر فوق رأسها في السماء. والمصابيح في النوافذ ترتعش، فوق العمود يرتفع الكلوب، تحوم حوله الفراشات الخضراء، ذات الأرجل المشرشرة، وتمتلئ المصطبه بالرجال، يخرجون من البيوت، ويأتون من القرى المجاورة، يشربون الشاي والدخان، ويتناقلون أخبار الصحف. تغمض عينيها وترى نفسها وقد دخلت المدرسة وتعلمت القراءة والكتابة وأصبحت باحثة في علم من العلوم، أو كاتبة من هؤلاء اللاتي ترى صورهن في

الصحف. كان الشريان فى عنقها يدق بقوة. كأنما تتدفق الى رأسها الأفكار العبقرية. كانت خالتها وجميع الجارات يرفعن كفوفهن المشققة الى أعلى، يبتهلن الى الست الطاهرة أن تمنع عنها الحسد والأرواح الشريرة، تسمع أصواتهن تهمس بصوت كحفيف الهواء : هذه البنت لها عقل يوزن بلد.

فى طفولتها امتلأ رأسها بهذه الفكرة. وأفكار أخرى بلا عدد ، تفيض من حولها وهى ترقب النجوم. ترى الحياة تحت الأضواء واضحة كل الوضوح، مثل كتاب مفتوح، بسيطة كل البساطة، وأن الموت أبسط من الحياةو يبدأ لحظة الولادة، وأن الحبل يعجل بالموت، والزواج مضاد للعقل، وأن الملوك والآلهة كانوا مذنبين ومرتبكى آثام كثيرة، وأنها شهدت موت أبيها وهى جنين فى بطن أمها ، وابتهجت بذلك الحادث السعيد الى حد الانزلاق من الرحم.

فى تلك اللحظة كانت تحس جسمها ينزلق وحده أسفل الجسر. وحين تعود الى الدار تتلقى علقة ساخنة، أو تبيت بغير عشاء. لكنها كل يوم عند الغروب تمشى الى الجسر، وتجلس فى مكانها هناك، تنتظر ظهور النجوم، كأنما تكتشف شيئا جديدا ، فى كل مرة تظهر فيها الأضواء.

- ما الذى يمكن أن تخسره الواحدة منا بحق الست الطاهرة؟!

ومع ذلك لم تفكر واحدة من النسوة فى الهرب. لم تكن تفهم السر. لماذا تضطر المرأة للعودة وهى لاتخسر شيئا إن لم تعد؟ اللهم الا العلقة الساخنة.

لكن النسوة بد أن فى الابتعاد داخل الظلمة. لم تسمع منهن إلا أصوات هامسة من بعيد كحفيف الهواء :

- هذه المرأة تفكر فى الهرب.

- امرأة بلا عقل.

- ركب رأسها الشيطان.

- بل إنه البرميل يسخن الرأس.

- لعنة الله عليه، أصابنا جميعا بوجع الدماغ.

- الرحمة ياستنا الطاهرة.



كان الرجل قد عاد فجأة. بدأ يرفع البرميل من فوق الأرض، وهى تبرك كالجمل فوق ركبتيها. بحركة واحدة أصبح البرميل فوق رأسها. لايفصله عن فروة الشعر إلا تلك الحواية. ملفوفة حول نفسها والعقدة فوق الجبين. بدأت السخونة تتسرب وعنقها يلتوى. كانت تفكر ماذا يمكن أن تخسر؟ لم يكن هناك شئ تخسره، اللهم إلا ذلك الاحتكاك أثناء النوم، حين تمتد ذراعه فى الظلمة، ويمسك يدها، فتتركها له لمجرد إستغراقها فى النوم، فإن لم تكن مستغرقة تتركها له أيضا، مع تأنيب الضمير، وقد تسحبها منه وهى تتثاءب ثم تنقلب على الجنب الأخر لتواجه الحائط.

- ألم يكن بيننا فى البداية حب؟!

قد يكون هذا هو صوته، أو ربما هو صوتها. كل منهما اكتشف بعد فوات الأوان هذا الشك، الذى كان موجودا منذ البداية، وواضحا كل الوضوح. لكن كل شئ كان غامضا، وعسيرا على الفهم. ربما هو النفط، أو السخونة فى الرأس، وربما هو الخجل أيضا حين يكون الحب غائبا، وحين تكون الصداقة بين الرجل والمرأة غير واردة، فما الذى يمكن أن يجمعها معا ؟

- ماذا تقول؟

- الحبل.

كان الرجل فى مكانه واقفا. مدليا كتفيه. صدره عار فى مواجهة الليل. رأته يشد عضلات وجهه ويفتح فمه. حركة أشبه بابتسامة الحب. كانت أشد قسوة من الكشف عن أنياب الذئب. قد يتورط فى عمل الحب، لكن ذلك لن يكون إلا بسبب اليأس، واشتداد الحرارة أو التهاب الجلد.

- الرجل يفوق المرأة فى كل شئ حتى الحب.

- أتعنى حب الذات؟

- إسمعى! ماهذه الأصوات؟

لم يكن فى إمكانها سماع أي شئ، ربما كانت الأصوات تنبعث من الماضى أو الخيال المصاب بضربة شمس. واستطاعت رغم ذلك أن تدرك العلاقة بين حب الذات وشهوة الجنس.

رفعت ذراعها الى أعلى، وأمسكت قعر البرميل، خشية السقوط. أوغلت بقدميها فى البئر. أدركت وهى تغوص أن هناك شئ آخر فى الطفولة، لايمكن أن تنساه، وهى النظرة فى عينى خالتها، قبل أن تختفى العربة فى الليل ومعها الكلاب. كان تدفق المطر يزداد مع قوة الريح، والذرات السوداء تتطاير بسرعة أكبر، تشبه الصراصير الطيارة فى الليل. رغم المطر وانزلاق الأرض، كان عليها أن تحمل من البراميل الضعف أو الضعفين، بأمل الحصول على تذكرة العودة، أو نصف تذكرة. كان يمكن تخفيض الثمن الى النصف فى حالة الأطفال تحت سن الرشد أو النسوة من ذوات السمعة الطيبة، أو الرجال من ذوى الأمراض، والمصابين بالعته.

أوغلت حتى القاع غير هيابه لشئ. تركت أمواج النفط المتدفقة تلطم صدرهاو تمزق الجلباب، يتعرى جسمها يتلوى مع حركة الموج. تلهث كالطفلة تسبح، تدخل المياه صدرها فتشهق، ترتفع ذراعها وتهتز بعنف، كالفرخة المذبوحة ترقص.

هدأت العاصفة قليلا، وهدأ معها جسمها، بدأ عقلها يعمل، أجل، لم يكن لعقلها عمل سوى التفكير فى الهرب. كان يمكن أن تهرب تلك اللحظة، لولا جسمها المدفون فى الأرض. والرجل أيضا واقف فوق رأسها كالصقر. ورئيسها فى الشركة لايكف عن المساءلة : كم برميلا حملت. لماذا تأخرت عن الحضور فى الموعد المحدد؟ كان هناك دفتر للحضور والانصراف، وعليها أن توقع كل يوم، حضورها وانصرافها وعدد البراميل التى تحملها.

- أجل، إذ كان جسمها مدفونا فى هذا المكان فلماذا لاتبدأ على الفور بالحفر؟!

عقدت عزمها فى الحال على الإمساك بالأزميل، والعودة الى البحث. لم يعد لديها هدف إلا العثور على جسدها. إن لم تعثر على الجسد بأكمله، ربما تجد عضوا أو شيئا من الرفات. وقد يحالفها الحظ فتعثر أيضا على واحدة من الإلهات. تدفق الحماس الى جسدها على شكل انتفاضة العضلات. يدها تشد على الحزام كالموشكة على ضرب عصفورين بحجر واحد.

كانت الحرارة شديدة. نزعت الحقيبة من فوق كتفها ومعها الحزام. فكت ازرار الثوب وتخلصت تماما من ملابسها. بدا جسمها شابا اكثر شبابا مما تصورت. خطرت لها فكرة أن جسما آخر غير جسمها قد اندس بالقوة فى المساحة التى تشغلها. عبثا حاولت أن تضع يدها عليه. كان هناك من يمسك يدها فى يده. ربما هو الرجل. من غيره؟ كان يؤنبها لأنها لم تجهز العشاء، فى الأمسيات التى لم يكن يؤنبها فيها كان يستغرق فى النوم، دون أن ينطق حرفا، أو حتى ينظر اليها.

لم تكن الحرارة مزعجة، ربما بسبب العرى. نسمة هواء تداعب النهدين، تتسع عيناها وهى ترقب ذلك الجسد العارى، تشتد الدهشة حين يتحرك الجسد الى الناحية الأخرى ويختفى.

كان عليها أن تحرك رأسها قليلا لتراه مرة أخرى. جسد طويل مشدود

العضلات خاصة عضلات البطن، بسبب عدم الحبل لاشك، وعضلات العنق، إنه البرميل لاشك. وعضلات الذراع اليمنى، بسبب الحفر بالأزميل لاشك. وأصابعها طويلة مسحوبة الأطراف مشبعة بالحركة دون أن تحركها، ولون الأظافر أسود.

لم يسبق لها قط أن تأملت جسمها عن هذا القرب. قمة أنفها حمراء ملتهبة بسبب الشمس وجفونها متورمة. كتفاها يهبطان بحدة الى اليمين والى الشمال. لونهما برونزى قاتم مثل كتفى المومياء، لكن عند الصدر كانت تبتدئ منطقة اللحم الحقيقى. نهدان بارزان فى كبرياء، حاران، كأنما تسخنهما من الداخل روح خفية، والحلمتان نافرتان مستنفرتان تنبضان مع نبض آخر ينبعث من عمق مجهول.

هبطت عيناها مع انسياب الجسم. تجمدتا فوق غابة الشعر أسفل البطن. عبثا حاولت أن تنظر. لم يكن لها أبدا أن ترى بوضوح، وإن دققت النظر تحس الالتهاب فى عينيها. لم تكن تستطيع النفاذ الى هذه الغابة، التى بدت لها رغم الكثافة فارغة من الداخل. أكان ذلك بسبب فراغ العالم؟!

اشد ماكان يفزعها، هو عجزها عن التحديق طويلا فى عينيها. تراهما غائرتين تحت عظام جبهة يابسة كالأرض. تنظر اليهما، كما لو كانتا نقطتين فى الأفق بعيدتين جدا، أبعد من النجوم ، كأنما لو كانتا عينا امرأة أخرى تطلان عليها من وراء السحب.

- عينا واحدة من الإلهات لاشك.

كانت قد حددت المكان حسب الخريطة. واصلت الحفر على مدار اليوم من الشروق الى الغروب. لم تكن تتشكك فى المكان. ورائحة جسدها تتصاعد من بطن الأرض. لاشئ يدل على الجسد إلا الرائحة، لكنها فى نهاية اليوم لم تعثر على شئ. خرجت مع الأزميل خاوية اليدين.

ربما أخطأت المكان. لاشئ كالخطأ يعيد إليها الأمل. حملت حقيبتها وانتقلت الى مكان آخر تصورت أنه الصحيح. كانت الرائحة تتصاعد منه على نحو أشد. كلما اشتدت الرائحة ازداد يقينها أنها بالقرب من جسدها. حفرت حتى وصلت القاع. لم تعثر على شئ، فانتقلت الى مكان آخر. لم تكن مستعدة لقبول اليأس. انقضى اليوم وهى تحفر دون طائل. احتضنت الأمل على امتداد اليوم وراء اليوم، وفى كل يوم تنتقل من مكان إلى مكان. فى نهاية المطاف حين انصرم النهار الأخير وغابت الشمس، تهاوى جسدها وراحت تجهش بالبكاء.

- أيكون من الأفضل أن تعود الى حمل البراميل؟

لكن الدموع كانت تنحدر كالبخار المحبوس. تخفف رأسها من ثقل الضغط ثم فتحت عينيها. أدركت أن جفونها ملتهبة والدموع امتزجت بذرات النفط. لكن عقلها كان يصفو على نحو غريب. ولاحت لها فكرة من بعيد كالنجم يلمع فى ظلمة الليل. إن عدم وجود الإلهات فى هذا المكان لايعنى عدم وجودهن على الإطلاق. ثم إن الأرض تدور، وربما قد تبدل المكان بمكان آخر مع دورة الأرض.

- فكرة منطقية تماما.

وكان هناك الدليل على هذه الفكرة. إن موضع جسمها قد تبدّل فعلا. لم تعد فى مكانها الأول. كان تدفق الشلال يجرفها الى مكان آخر. وفى بطن الأرض كان التيار أيضا يدفع الرفات بحركة مستديمة. كان يمكن لرفاتها على هذا النحو أن يجتاز الحدود، لولا نقطة التفتيش، وإذا كان الحارس غارقا فى النوم.

ربما هو خطها العاثر. كان الحارس يقظا بسبب يقظة البعوض ليس إلا، والمبيدات أيضا كانت مغشوشة تلتهمها البعوضات في غمضة عين، وتغدو الواحدة منهن فى حجم الضفدعة. أجل، كان يمكن أن تفلت بعض الأجسام من جواز المرور، ربما أفلح جسمها فى الهرب بلا تذكرة، ولاتصريح مكتوب بخط زوجها، ولا ورقة صفراء مختومة بالصقر وتوقيع رئيسها فى العمل. لم تكن لديها النية فى خرق القوانين. كانت مثال الطاعة والولاء. وكان يمكن على الأقل لرفاتها أن يمر دون فحوص. لولا إنشاء ذلك المبنى الذى سمي فيما بعد بالمشرحة. فى أحلامها بالليل لم تكن تستطيع النظر الى جسدها الممدود، فوق المنضدة الباردة من الرخام. وأنفها مملوء بالفورمالين.

وأحست يدا حانية تهدهدها. كانت بطبيعة الحال يد الرجل. من غيره؟ صوته فى أذنيها رقيقا كالهواء.

- لن تكون رائحة الفورمالين أسوأ من النفط فى نهاية المطاف.

كان صادقا كل الصدق. بدت رائحة الفورمالين أكثر رقة. أو ربما هو الحلم. حين يصبح الشئ جميلا لمجرد أنه غير موجود. وخطرت لها فكرة.

- لابد أنها جميلة الآن فى عينى زوجها لمجرد أنها غير موجودة.

اثر هزة عنيفة إرتمت أرضا فاقدة الوعى. لم تستطع تثبيت قدميها فى المكان. جرفها التيار فى اتجاه لايمكن أن تحدده، وقبل أن تستعيد الحواس انبعث صوت أشبه بصفارة المركب. انطلقت تجرى نحو الشاطئ، وصوت الأمواج كالطبول ترتفع.

- النجدة!

صدرت عنها الصرخة كصوت الحيوان المذبوح. كان يمكن لها أن تعيش كالنسوة ثم تموت لولا ذلك الأزميل، وتلك الجلسة فوق الجسر عند الغروب وهى طفلة، وذلك الضوء، كفى كفى لاجدوى الآن من أى شئ.

- النجدة!

انطلق صوتها كالصفارة وسط دقات الطبول. لم تعرف أهى طبول العيد، أم صفارة الصمت تدوى فى الأذن قبل النفس الأخير. إلا أنها كانت ترى الشراع من بعيد. نقطة بيضاء فى الأفق. الظهور الأول لأى موكب فى البحر. عيناها تكتشفان الضوء. نقطة واضحة كل الوضوح. محددة مثل قطرة ماء، واضحة وصافية وعذبة، كصوت أمها يسرى فى أذنها قبل الولادة.

- إمسكى إيدى.

رأت ذراعا طويلة فى نهايتها خمسة أصابع. مفرودة ممدودة اليها. وهى تمد ذراعها كما كانت تمده وهى طفلة. عيناها شاخصتان ثابتتان فوق نقطة الضوء. قفزت الى الأمام تهزها النشوة. الصوت فى أذنيها واضح محدد كالنجم.

- هاتى إيدك فى إيدى.

حركت جذعها لتمد ذراعها أكثر. إختفى الصوت كأنما بددته الحركة، أو اختنق فى قرقعة الطبول، ونباح الكلاب من بعيد. أطبق الظلام يشبه التجويف داخل الرحم. أدركت أن أمها لابد عاشت هذه اللحظة، حين كانت تغيب الشمس ويغرق الكون فى الظلمة. كانت تجلس مثلها فوق الجسر. عيناها تنظران، وحين تظهر الأضواء ينتقض جسدها كما كانت هى تنتفض، وقلبها يدق بقوة، توشك على اكتشاف ذلك الشئ، الذى كان يبدو فى كل مرة ليس شيئا.

كانت البركة تمتد أمام عينيها لانهائية. الرجل كان يستدير عائدا إلى البيت. ظهره أصبح مقوسا بعد أن تهاوى فى الفراش. كان نومه ثقيلا، وهى راقدة مغلقة الجفون. فى أحلامها لم تكن تكف عن الهرب. ساقاها تطلقهما للريح. ومن خلفها كان هناك شئ يجرى فوق قدمين، وأحيانا أربعة أو ستة لم تكن قادرة على أن تعد الأرجل أو القوائم. وصوت اللهاث من خلفها عال

مسموع. له إيقاع منتظم كالشخير. حين تستدير لاترى شيئا يجرى وراءها إلا ظلها الأسود فوق الأرض.

- إنت صاحى؟

- لأ، نايم.

لم تكن تعرف كيف يرد عليها وهو نائم. لكنه كان يتكلم فى النوم أكثر من أى وقت آخر. فإذا انقلب على الجنب الآخر لم تسمع الصوت. كان الليل حارا كأنما قرص الشمس لم يغب. الظلمة كثيفة القوام تكاد تلمسها باليد. وضوء اللمبة يتهالك رغم الثبات. لاشئ يتحرك إلا تلك الكائنات، ذات الأجنحة. كان من الطبيعى أن تنجذب الفراشات البيضاء الى الضوء. لكن هذه الكائنات لم تكن بيضاء. ولم تكن صغيرة كالفراشات. كانت كبيرة بحجم الضفادع، سوداء بلون الليل.

- هل يغير النفط أيضا من طبيعة الفراشات؟!

راحت الضفدعات تدور بحركة سريعة حول المصباح. حدقت فى إحداهن طويلا. كان لها رأس أسود كأنما مربوط بمنديل. فمها مزموم بلا ابتسامة. ترتطم بزجاج المصباح المرة وراء المرة. ظلها فوق الجدار أكبر من حجمها الحقيقى. يتراقص مع حركتها، يترنح مثل فرخة مذبوحة. تتخبط ولاتكف عن الانجذاب إلى اللهب، تتشبث به تحاول الثبات عليه خشية السقوط.

كانت تبدو لها ضفدعة عاقلة تماما رغم سعيها المجنون. ألم يكن لديها

ماتمسكه إلا مايدمرها ؟! كانت تسعى الى النجاة، مع أنه ليس إلا الموت، وقد أصابها اللهب بسخونة فى الرأس، وسقطت محترقة إلى الأرض مثل سمكة مشوية. عيناها جاحظتان مملوءتان بالندم. مدت ذراعها لتربت على رأسها. وفجأة تصاعدت منها رائحة اللحم المشوى. بحركة سريعة من يدها أدخلتها فى فمها، والتهمتها فى لحظة. لم يكن لديها وقت لتأنيب الضمير.

لمحها الرجل وهى تتلمظ بعد الوجبة الشهية. مسحت فمها بكفها كأنما تخفى الإثم. شدت عضلات ظهرها. سارت تدب بقديمها كما كانت تفعل وهى طفلة. إنها تسرع الخطى. كأنما لتلحق موعدا محددا فى المكان المحدد.. أنفاسها تلهث كالأطفال. تكاد تصرخ من الفرح حين تصل قبل الموعد بلحظة. تلك الليلة كانت الريح تعصف، والغبار الأسود يحجب السماء والأرض. ظلت جالسة فى مكانها تنتظر. ربما انتصف الليل وهى تنتظر. كانت على يقين أن النسوة هناك وراء السحب، وأنهن سوف يظهرن مثل كل ليلة. السحب كانت تراها متحركة، وسوف تنتقل من هذا المكان الى مكان آخر، سوف تظهر النسوة حتما عن يقين سوف يظهرن. وبدأت تغنى لتسلى نفسها. كانت تسمع خالتها والنسوة من الجارات يغنين للست الطاهرة، أو يغنين للشمس حين تطلع، أو للقمح عند الحصاد، أو لمياه النيل حين تفيض، أو للقمر حين يصبح بدرا. تتوه عيناها فى خضم الظلمة السوداء. تلمع الدموع فى عينيها. النسوة لم يظهرن ككل ليلة.

- هل وشين بها عند صاحب الجلالة؟

كانت الريح تلطم وجهها بالذرات السوداء. كل شئ من حولها تغطى بالظلمة. لا هى بالسائلة ولا هى باليابسة. تتسرب من تحت الجلد وتدخل مسام جسمها. تزحف من تحت العظام الى مراكز الحس والعصب.

– بللى لسانك بقطرة أو قطرتين.

كان الرجل واقفا، ذراعه ممدودة اليها بالزجاجة، وهى تحاول أن تمد ذراعها. عيناها مفتوحتان عن آخرهما، شفتاه تتحركان دون أن تسمع الصوت، أذناها مسدودتان، تراكمت الذرات وذابت مع السخونة كالشمع الأسود. وهو واقف أمامها على بعد امتداد الذراع. يده تمسك الزجاجة. ذراعها ملتصقة بجسمها، تحاول أن تحركه فلا يتحرك. جسمها فى مكانه ثابت، بينما الضفدعات تتطاير بخفة حول اللمبة.

اتسعت عيناها تحملقان فى الضوء. جفونها ملتهبة لاتقوى على إغلاقها. اللهب يلسع البياض العارى. شدت جفونها وأغمضت عينيها. بدت الظلمة أفضل من الضوء. عقلها ايضا بدا لها أكبر من عقل الضفدعة. من تحت الجفون كانت ترى نقاط الضوء تسبح فى المساحات السوداء، مثل قطرات الماء تنزلق من بين عينيها.

– أتبكين كالنسوة؟

لم تكن تعرف أنها هى التى تبكى. كان النشيج يسرى فى اذنيها كصوت واحدة من الجارات. أو صوت خالتها، أو أمها وهى بعد جنين. أو ربما هى الست الطاهرة نفسها. لم تكن سمعت صوت السيدة الطاهرة أبدا،

لكن خالتها كانت تسمعه، وحين تنام تترك النافذة مفتوحة، ترهف أذنيها في الليل، قبل طلوع الفجر، يسرى الصوت هادئا كشعاع من الضوء. لاتكاد تسمعه وهى راقدة فتنهض، تشرئب بعنقها نحو الأفق، يأتيها الصوت من بعيد قبل ظهور الشفق.

- أمرت بشفائك من وجع الرأس، انهضى!

تنهض خالتها على الفور من رقادها. تفك المنديل من حول رأسها. تجلس فى الطشت. تصب الماء بالكوز فوق جسمها. مع كل كوز تهمس باسم الست الطاهرة ثلاث مرات.

- من هى الست الطاهرة ياخالتى؟

تفتح خالتها ذراعيها كأنما هى كل العالم. الست الطاهرة هى أم الكون. هى أم السماء والأرض. هى الوحيدة القادرة على شفائها. هى أم الآلهة جميعا والأنبياء، هى واهبة الحياة والصحة، وهى إلهة المرض والموت.

- نعم يا ابنتى، مَن تُعطى الحياة هى القادرة على أخذها ومَن تجلب المرض هى التى تجلب الشفاء.

★★★

من وراء الكثبان العالية، عبر المسافة البعيدة فى الليل، رأت مندوب البوليس جالسا. كان هو الكرسى المتحرك ذاته، يدور به فيصبح وجهه ناحية زوجها. بدا كأنما أيقظوه فجأة من النوم.

- أراك متورم الجفون، وشفتاك مشققتان هل أنت مريض؟

- منذ العيد لم يرسلوا الينا المنحة.

- ألا تكف عن التذمر وأنت فى نهاية العمر؟ ألا تعرف أن صاحب الجلالة هو الخادم الأمين والساهر على الدوام من أجل راحتنا ؟

- أجل، هذا واضح تماما لكن ..

- ليس عندك حجة الآن لعدم الكتابة، وعندك هذه الآلة الجديدة.

- أتنوى الشركة توصيل التيار؟

- أجل، وإذا جاء التيار يمكن لك أن تكتب حين تنقطع الكهرباء، وهذه الإلة الجديدة كما تعرف تفكر، وتكتب وتشطب وتمسح و ...

- وتغسل وتطبخ وكل شئ، إنها تقوم بعمل أربعة زوجات على الأقل.

- ألم تعد زوجتك من الإجازة بعد؟

- أتعنى الأولى أم الأخيرة؟

- على أى حال نحن جادين فى البحث. لابد من تقديم تقرير لصاحب الجلالة قبل نهاية العيد، وهو كما تعرف فى انتظار مقالك الجديد بمناسبة عيد ميلاده، أتعرف أنه سألنى عنك، ولماذا لم تعد تكتب.

منذ كف عن الكتابة لم يكن هناك إلا فراغ العالم. امتداد الليل فى النهار ولا أحد يسأل عنه. مساحات من الظلمة لايملأها إلا النوم. أو قراءة

الصحيفة أو تحريك الذراعين والساقين فى الهواء. مع طرقعه أصابع القدم. كان مثل صاحب الجلالة لايعرف القراءة ولا الكتابة. لم يكن له أن يكون أفضل من الملك. ثم ماجدوى القراءة والكتابة؟ الأنبياء جميعا كانوا أميين واستطاعوا رغم ذلك قيادة العالم. أليس كذلك؟

كان يدق طول الليل بأصبعه، الدقات تطرقع فى رأسها وهى نائمة. صوت الريح أيضا كان يفرقع. والشلال يهدر كالمطر يدق النوافذ والأبواب. تلف رأسها بالمنديل الأسود، تعقده فوق جبينها كرأس الثعبان. ترى نفسها فى المرآة مثل الإلهة سخمت. يرمقها بعينين حمراوتين ملتهبة الزوايا.

- صاحية؟

- لأ.

تقولها بلا صوت. تغمض عينيها متظاهرة بالنوم. تحكم إغلاق جفونها. لكنه يمد ذراعه. يحاول فتح عينيها بأصابعه، كأنما سيسكب فيها القطرة. لاشئ ينسكب فى عينيها إلا ضوء اللمبة. يلامس بياض العين كاللهب. وهو جالس فى مكانه يخفى نصفه الأعلى وراء الصحيفة.

- من الطبيعى أن تشعر بالخزى حين تقرأ مقالك. أليس كذلك؟

- لا تكلمينى بهذه الطريقة الخالية من الاحترام! ألا تعرفين أننى زوجك؟

- لا، لم أكن أعرف.

- ألا تعرفين أن الله أمر المرأة أن تسجد لزوجها ؟ هيا إسجدى يا مره!

- ألا تعرف أنك تسجد لصاحب الجلالة؟

- ما العيب فى هذا ؟ الجميع يسجدون له.

- ألم يعلن أنك تسملت رشوة من الشيطان لتكف عن الكتابة عنه.

- لم يكن إلا عتابا رقيقا من جلالته، وكتبت شكوى له.

- شكوت منه إليه؟

- ما العيب فى هذا ؟ الجميع يشكون منه اليه. هيا إخلعى ثوبك الوسخ وخذى حماما لنحتفل معا بالعيد وعندنا بدل الزجاجة زجاجتين أنظرى!



كان يمسك فى كل يد زجاجة، ويدور حول نفسه، يدق الأرض بقدميه فى إيقاع راقص. طبول العيد تدق الإيقاع ذاته. واهتزت الأرض تحت جسده، فانفكت دكةاللباس. تساقط سرواله حتى قدميه. رفسه بقدمه اليمنى، فطار فى الهواء ثم اشتبك فى خطاف فى السقف. ظل معلقا يتأرجح تحت الضوء، تعلوه البقع السوداء، تفوح منها رائحة النفط. وهو يواصل الرقص عاريا، كما ولدته أمه. يدور حول نفسه دورة كاملة، ثم يعود الى النقطة ذاتها حيث بدأ.

كانت تظنه فى عمر الشباب. لكن جسده العارى كشف انه كهل. كتفاه تهبطان متهدلين الى أسفل. صدره مقوس تحت فروة ناحلة من الشعر.

عضلاته مثل حبال مرتخية، وبشرته يابسة مثل طبقة من الجبس يمكن أن يخلعها عنه.

هبطت عيناها مع انسياب جسده أسفل البطن. كان ضوء منحرف يتساقط فوق كتلة الشعر. تهتز مع كل تنفس ملقية ظلالها على الجدار. شريان عنقه نافر ينتفض. يرسمه الضوء الشاحب بخط أسود. أجل، كان هناك نفط حقيقى فى عنقه. فى هذا الشريان المنتفخ، وفى هذا السائل الأسود الذى يجرى مجرى الدم.

ظلت واقفة تحملق داخل ملابسها الكاملة. وهو ينظر إليها يتوقع منها أن تخلعها. لكنها أصبحت تشك فى أمره. ولاتعرف ان كان عليها ان تتعرى مثله. لم يكن لها هدف من البقاء معه إلا الاحتماء وراء جدار، وإن سقط الجدار فى مواجهة الشلال فلن يكون بينهما شئ.

- اجل، سينهار الجدار وينهار كل شئ معه.

ربما استغرقت وقتا طويلا حتى تعرت. حدث كل شئ كأنما لاشئ. ثم دوت الصفارة فى أذنيها كالصرخة. صرخة ألم كاملة السواد مكتملة اليأس. صرخة بلا حدود شقت الظلمة مثل حد السيف. تحمل من عرض البركة ومن أعماق الأرض والسماء جميع الآلام. مثل ظهر حيوان مثقل بجميع الأوجاع، بذكرى الاهانات والصفعات، وحفلات الأعياد، والزجاجات والمقالات، والأنوار المتلالئة، والأوحال وجميع الأشواق الدفينة للموت أو العودة الى رحم الأم.

أصبح كل شئ كأنما يتكشف تحت ضوء الصرخة. القمر الذى صعد فى السماء. الهواء الذى يحرك سطح البركة. العرى الذى بلغ قمة اليأس. العرق المحموم بالأمل. ذكريات طفولة غامضة. غرفة مجهولة فى حياة سابقة. أزميل باحثة بلا بحث. إلهات لا وجود لهن فى أى مكان. وأشلاء صغيرة، مبعثرة، لايمكن أن تلمها إلا قوة خارقة، تلمها وتصنع منها ذلك الشعاع الممدود من عينيها حتى سطح القمر.

- أهى نهاية العالم؟

- بل هى روح الست الطاهرة تحلق.

قالتها دون أن تفتح شفتيها. منذ إخفاقها فى الهرب أوشكت أن تنسى كل شئ. حياتها كلها عديمة الجدوى. لكن الأمر ينقلب مع انقلاب حركة العين. ترى الروح تحوم فوق سطح القمر. تدرك على الفور أن اللحظة جاءت. وقد تم اختيارها لأداء الرسالة. تشد عضلاتها وتنهض. تسرع الخطى فى الطريق. فوق كتفيها الحقيبة معلقة بالحزام. تشدة بيدها كأنما تشد وجودها من العدم.

- أجل، لقد تم اختيارها وعليها أن تقود النسوة الى طريق الخلاص.

- ماذا تقولين يا أختى؟

- هناك طريق بلا شك.

- ألم تحبلى حتى الآن؟

- ليس من السهل وجود رجل قادر على الحب.

فى أعماقها كانت تحن للحب. كان للنسوة الأخريات أزواج وأطفال. تعد كل واحدة منهن أسماء أطفالها على أصابعها. عيونهن مملوءة بالزهد فى كل شئ. لم يعد لهن امل فى الحياة، وهى ماذا حققت؟ لم تعثر على شئ. لكنها على الأقل لاتخجل من كشف وجهها، والنظر بكل عينيها الى ضوء القمر.

- ألهذا السبب لم تر الرجل في حياتها قط؟

كان الرجل واقفا على العتبة. لم تفتح فمها وتقول شيئا. إن قالت فلم يكن بمقدوره أن يفهم، وإن فهم فإن القدر يتدخل حتما ليفرق بينهما. كانا يعيشان داخل نظام يحكمه القدر. والقدر لايدرك من الحب إلا نوعا واحدا. تلك العاطفة الجياشة للأرض وصاحب الجلالة. ربما كان ذلك بسبب الحدود التى يفرضها النفط. قوة المد والجذر المختبئ فى المياه السوداء، قصف الريح وحركة الموج مع تدفق الشلال. كانت على يقين أن الرجل الواقف أمامها ليس هو رجل أحلامها، كلاهما كان قادما من نقطتين متعارضتين ليلتقيا صدفة. كأنما لم يكن يجمعهما شئ إلا القدر.



- وكانت أيضا لاتجيد الطهى، امرأة بلا قيمة تحاول أن تستقى قيمتها من قيمة الإلهات.

إنه صوت زوجها أو ربما رئيسها فى العمل، يدلى بأوصافها لرجل

البوليس. فى طريقها الى العمل قد تمر بالصدفة أمام مطبخ، تلمح رؤوس البصل متدلية. يصيبها المنظر كأنما بطعنة خنجر. تشتهى أن تموت قبل أن تلمس شعرة من تلك الرؤوس. كانت هذه الشعرات الصفراء تظهر لها فى الحلم كأسنان كماشة، تقبض على عنقها من الخلف، وتلقى بها إلى ماوراء الموت.

- ربما كانت فى حاجة إلى إجازة.

لم يكن للمرأة أن تخرج فى إجازة. كأنما الباب إذا انفتح وخرجت فلن تعود. جاءتها فكرة الحب. حب كبير تستحق أن تموت من أجله امرأة لم تعرف الحب، نزيلة السجن الدائم. الهواء المعدوم. الدخان والذرات السوداء. الصمت وقرقعة أوراق الصحيفة. النصف الأسفل لرجل نائم، والمطبخ. أجل. قد تنبعث من المطبخ رائحة اللحم المشوى فإذا بالرجل يصحو. تستيقظ الشهوة وربما الحب. غير أن المكان هو أبدا لايتغير. مدفوعة فيه بحكم غريزة البقاء. وجبات الأكل لانهائية، لاتكفى لإرواء الغليل. أجل، كانت هناك الورقة والآلة، دقت بأصابعها الطلب.

- هل طلبت إجازة؟

- نعم.

- هل حصلت على موافقة زوجها ؟

- لا.

- هل حصلت على موافقة رئيسها فى العمل؟

- لا.

- كيف خرجت فى إجازة إذن؟

يدب الصمت فى غرفة التحقيق. يدور رجل البوليس حول نفسه داخل الكرسى. يشعل اللمبة الحمراء. يطرد الصحفيين. يدق بأصابعه فوق الآلة ثم يستدير. يحملق فى وجه زوجها ورئيسها فى العمل.

- أتريد الصراحة؟

- نعم،

- ألن يتسرب الخبر إلى الصحافة؟

- لا، بكل تأكيد!

- أجل، كانت الحاجة الى الخروج ضرورية.

- كيف؟

- خرجت تبحث عن كبريائها الضائع. كان لها كبرياء حيوان انتصب فوق قدمين ولم يعد يزحف فوق أربعة قوائم. أجل، لم تكن هى امرأة مطبخ ولا سرير. لاتحفظ الألحان التى تغنيها النسوة فى الحمام. ولاتعرف الحب الذى ينبعث فى قلب زوجها حين يراها تحشو الكرنب. وأكثر من ذلك لم تكن رموشها تهتز حين ينظر اليها رئيسها فى العمل أو صاحب الجلالة.

تتجمد أصابع رجل البوليس فوق الآلة. يمسح كلمة صاحب الجلالة، ويواصل الدق بيد واحدة، ويده الثانية تمسح العرق عن وجهه.

- امرأة عيناها حجريتان مقطوعتان من جبل جليدى بارد.

إلى هنا توقفت أصابعه تماما وكف عن الكتابة. دار بجذعه عده دورات داخل الكرسى ثم ثبت فى مكانه. وجهه ناحية الحائط. لم يعرف تماما مَنْ الذى يتكلم. رئيسها فى العمل أو زوجها. لم يحاول الاستدارة بالكرسى. ظل يحملق فى الجدار، معطيا ظهره للرجلين.

- ماذا تعنى بهذا الجليد البارد ؟!

- أعنى أنهما عينان.

- أجل.

تبادل زوجها مع رئيسها فى العمل النظرات. بدا كأنما كل منهما يحاول أن يتخيل شكل عينيها. نفث رئيسها فى العمل الدخان كثيفا من الغليون. هز زوجها ركبتيه ثم أسدل جفونه.

- أعنى أنهما عينان لا مباليتان، لاتنظران إليك. وإن نظرت فهى نظرة تتجاوزك الى نقطة فوق رأسك بعيدة فى الأفق.

- أكانت تتطلع الى رجل آخر ؟

استدار رجل البوليس ليواجه الرجلين بنظرة قاطعة كالسيف. تطلع أحدهما للآخر قبل الإجابة.

- لا ، لم تكن تتطلع الى رجل آخر، أجل، لم تكن تتطلع الى رجل آخر، ربما كانت عيناها لهذا السبب تستفزان الواحد منا ، تود أن تصفعهما لتنظران اليك، أجل يمكن القول أنهما عينان وقحتان، عينان بالرغم من اللامبالاة بك فهما يباليان بكل شئ آخر وان كان لاشئ، مجرد نقطة متناهية الصغر فى الأفق.

دب الصمت طويلا فى غرفة التحقيق. لم تسمع إلا أنفاس الرجال الثلاثة تعلو وتهبط، وأزيز المروحة تدور حول نفسها ، وذبابة تطن وترتطم بضوء اللمبة، والذرات السوداء كرذاذ المطر تدق النافذة.

تسربت اليها الأصوات عبر المسافة البعيدة. ذابت كلها فى صوت واحد بإيقاع منتظم. كان صمت رجل البوليس يدوى على نحو واضح. أدركت أنه يعرف كل شئ. وبدأت أصابعه تدق من جديد فوق الآلة.

- أجل، ماذا عن شكل عنقها ؟!

- نعم عنقها ، هذا ايضا غريب الشكل أطول من أى عنق، كأنما هو خط الأفق، يرتفع كأنما عنق العنقاء، عنق لا يمكن الإمساك به لخنقه مثلا. عنق يثير شهوتك. ذلك أنه لا يمكنك السيطرة عليه. عنق يوشك أن،

دب الصمت. كفت الاصابع عن الدق، ودار الكرسى حول نفسه ثم توقف. لم يسمع الا صوت لهاث.

- أن ماذا ؟

– أن يتبدل وينقلب الى النقيض بحركة مفاجئة، فينثنى ملتويا مستسلما كأنما يحمل من فوقه ثقلا كبيرا.

– شئ مفزع.

– أجل، لاشك أنك ترتعش أمام هذا العنق.

– وماذا عن بقية جسمها ؟

– أجل، هذا أيضا مفزع.

– كيف؟

– جسمها تراه موجودا أمامك لا شك. هذا الحضور اللامتناهى لوجودها، الذى يتلاشى فجأة فيصبح غيابا كأنما الى الابد.

وانقطعت كل الأصوات تماما. لم تسمع حتى أنفاسهم الثلاثة. وربما توقفت المروحة أيضا أو انقطع التيار فجأة. واللمبة انطفأت، والذبابة طارت أو احترقت، ولم يبق إلا رذاذ المطر يدق أذنيها مع إيقاع الدقات فى شريان العنق، وصفير الريح من بعيد يشبه صمت الليل.

ثم جاءتها الضحكة عبر الظلمة. لم تعرف مَنْ من الرجال كان يضحك. ضحكة غريبة متقطعة كالنشيج، عالية النبرة تشبه صوت رجل يقهقه. يهتز جسمه مع اهتزازة رأسه بالضحك.

من وراء الكثبان وعرض البركة جاءتها القهقهة، تشبه قرقعة الهواء. ترتطم بالجدران مثل رذاذ مطر متجمد. تتسرب من تحت عقب الباب مع

السرسوب الأسود. كان وجهها للحائط ورأسها ملفوف بالمنديل. بحركة من عنقها على شكل نصف دائرة أصبح وجهها ناحية الباب. كان الرجل واقفا مشمرا جلبابه. رأسه مبلل كأنما أغرقه المطر. نفض شعره وانتفض مثل ضفدعة تخرج من البركة. التقت عيناها بعينيه فإذا به يدير بياض عينيه بحركة الهواء ينقلب السطح ليكشف عن القاع.

- صاحية؟

نبرته رقيقة محكومة، تحمل حنو الرجل حين يفقد السيطرة على امرأته. خلع ملابسه بحركة مَنْ يحاول أن يخلع الإهانة. كان طويلا وجلده مبللا ومشدودا كأنما مصنوع من جلد حقيقى، يلمع فى الظلمة مثل حذاء ممسوح فى المطر. تقدم نحوها بخطوة من يريد إثبات أنه يمتلك شيئا لا يملكه.

★★★

- الرجال آلات لإخفاء الحقيقة، يتصورون فى أعماقهم أنهم يملكون الحقيقة.

- أيكونون هم الآلهة؟!

إنه صوت إمرأة تتحدث الى النسوة. يشبه صوتها حين كانت شابة. تهز كل واحدة منهن رأسها علامة الفهم.

- هذا مفهوم يا أختى، لكن رؤوس البصل لاتزال هناك فى المطبخ، لم

تلمسها يد، ويوشك موعد الأكل أن يأتى، ويصيح الرجل، هذا واضح، هل فهمت؟

- نعم، فهمت يا أختى، لكن الضفدعات تطورت وخرجت من قاع البركة الى الضوء وأنثى النسوة عاجزات عن الحركة.

دب الصمت حين عاد الرجل. صاح كعادته طالبا الأكل. ثم رقد فى الفراش عاريا. مد ذراعه فى الظلمة تحت الغطاء، كأنما يمد يده تحت الماء. عبثا حاولت أصابعه أن تصل الى يدها. أخيرا وصلت اليها عبر المسافة البعيدة. كان وجهها للحائط. أحست قبضة يده خشنة مبللة بعرق أسود. حملتها الدوامة الى بطن الأرض. صدره متجمد مثل صدر موميا ء. أجوف من الداخل، يملؤه فراغ العالم. ولا مفر. عليها أن تضع رأسها فوق هذا الصدر الحجرى. كأنما هو صدر الإله إخناتون بعد أن أزالوا عنه النهدين.

- ماذا تقولين يا أختى؟

- أدركتُ بعد فوات الوقت أن كل شئ حقيقى. أعنى الزواج، وربما أيضا البحث عن الإلهات، وكل شئ آخر فى الحياة، بما فى ذلك الموت.

- والحب؟!

- لا ، لم أحبه، وإن فعلت ذلك فسوف يغرق العالم فى الوهم.

كان جسدها عاريا على تماس مع العالم العارى، بكل حقيقته مثل اللحم. وكان يمكن أن تنزلق من الفراش وتهرب، لكن الخروج من ذلك البئر كان

مستحيلا، أو ربما بدا لها النفط أفضل من أى شئ آخر.

طوت ذراعها فى المكان الضيق. اختنقت بالدخان والغبار الأسود. بدا لها الموت نوعا من الخلود. والهرب من الموت ليس إلا الغباء. أجل، الموت هو عبقرية الكائن الحى حين يصبح خالدا مثل الآلهة.

تظاهرت بالموت وهى راقدة. سقط جسدها فى العمق دون أن تطوى ذراعها الثانية. كانت العتمة تشبه العين السوداء الضخمة. عين لا تكف عن النظر اليها. عين مقدسة لا تنام. لا بد أنها عين إلهة الموت سخمت، أو ربما هى عين الست الطاهرة، تنظر اليها وتذكرها بالرسالة.



فتحت عينيها فجأة. كان الرجل يحملق فيها من وراء الصحيفة. عيناه تخترقان الورق وتنفذان.

- نعم كانت تحت المراقبة الدائمة.

- بأمر من صاحب الجلالة؟

- ربما، أو ربما هو رئيسها فى العمل، أو زوجها، إستأجر رجلا يراقبها نظير مبلغ من المال. أو ربما هم الثلاثة لا أحد يعرف بالتحديد. لكن المراقبة كانت مستمرة، أربعة وعشرين ساعة فى اليوم. رجل البوليس كان معهم بطبيعة الحال، يدور بالكرسى حول نفسه، ويدق على الآلة الكاتبة:

- اجتمعت مع النسوة فى الساعة السادسة والنصف دون الحصول على

تصريح بالاجتماع، عادت الى بيتها فى الثانية إلا عشر دقائق، ساقت المركبة وحدها دون الاعتماد على سائق رجل. كل ذلك يشكل خطورة على نظام العالم، يستوجب السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، وحمل الأثقال فوق رأسها. يستدعى الأمر بطبيعة الحال فصلها من العمل وطلاقها من زوجها، وإن لم تكن متزوجة يمكن لصاحب الجلالة فى هذه الحالة أن يفوض القاضى العام باصدار الحكم بالاعدام.

كان الفراش يهتز فى العتمة كلما تقلب الرجل من جنب الى جنب. يصدر عن ألواح الخشب أنين مثل قط يموء. يتشمم بأنفه رائحة الطعام. لم يكن ينبعث من المطبخ رائحة أكل. رؤوس البصل راقدة فى الحوض لا تزال. الموقد مطفأ، والوعاء الألومنيوم فارغ، يلمع قاعه تحت الضوء بوميض رمادى.

- ألم تطبخى؟!

من مؤخرة عنقها أحست نفسها مسحوبة بقوة خارج حافة الوعى. انهالت الصفعات على خديها وأنفها وشفتيها ونهديها وبطنها بلا نظام. لم تستطع أن تفتح عينها لترى ماذا يحدث. كانت المرة الأولى فى حياتها التى يضربها فيها رجل.

- ألم تصرخى طالبة النجدة؟

ربما هى واحدة من الجارات، جاءت على الصوت. لم تكن هى صرخت على الاطلاق. أو صرخت لكن صوتها لم يطلع. كانت تريد أن تخفى الأمر فى الصمت. وتركت جسمها ممدودا على الأرض. إحدى ساقيها ملفوفة

بحزام الحقيبة. عارية تماما إلا من بقايا سروالها المزوق، يلتف حول قدمها كالخلخال. مطرز من الحوافى بإسمها وإسم زوجها داخل دائرة مغلقة على شكل القلب.

تحت الضوء الشاحب رأت فخذيها كبيرتان ضخمتان كأنما كانت تنظر إليهما من خلال عدسة مكبرة. طويلتان ومسحويتان بعيدا عنها، لا تكاد تراهما عبر المسافة البعيدة، كأنما هما فخذى امرأة أخرى.

وصعدت عيناها فوق جسدها تتسعان مع حركة الصعود، تتوقفان، كأنما مصعوقتين أمام رأسها المتدلى فوق العنق، مربوط بمنديل أسود، والوجه الأسمر يزداد سمرة فى الضوء المعتم، تعلوه نقط سوداء كالنمش، وخطوط كالتجاعيد مرسومة بالقلم، تهبط من زوايا الجفون الملتهبة كالدموع السوداء، والرموش ساقطة، كأنما هى انتقلت من الشباب الى الكهولة بحركة جانبية من عينها. انتفضت واقفة تشد عضلات ذراعيها وساقيها. تشد أعماق عقلها الباطن من جوف الأرض. تذكرت أنها رأت هذا الوجه من قبل، وعاشت هذه اللحظة فى حياة سابقة. مشهد العقاب هذا هو الذى كانت تراه فى أحلام اليقظة والنوم.

- هذا مخجل لامرأة محترمة مثلها تبحث عن الإلهات.

وسمعت صوتها ينتحب. أريد أن أموت من الخزى على الأقل، ثم سكتت عن النحيب فجأة. وجاء صوت يشبه صوت امرأة من النسوة.

- أجل، ما المشكلة إذن إنه يضربنى دائما وهو منتفخ بالكبرياء، لن

يطلع الصبح حتى أكون قد فتحت الباب وخرجت، نعم أعرف، سأمضى غدا، فامسحى هذه الدموع السوداء، لن ينقلب العالم لأن امرأة رقدت مع رجل غريب فى لقاء عابر.

كان صوتها يتبدل مع كل حركة من جسمها، وجسمها ينتقل من البرودة الى السخونة وهى تنقلب من جنب الى جنب. رائحتها تتضوع من عمق فيها لا يمكن لها أن تسبره. رائحة اللحم الراقد فى بطن الأرض. ربما أرادت أن تموت فى تلك اللحظة. أو ماتت فعلا، ثم مس طرف أنفها طرف أنفه وهو ينسحب من فوقها، أدركت لحظتها فقط أن جسدها موجود ولم يمت بعد.

– أكان ذلك هو الحب؟

كانت البلولة تسرى اليها من تحت الغطاء مع سرسوب النفط. كان يكفى أن ترى هذا السرسوب الأسود لتدرك أنها بلا قيمة، والرائحة من بعيد كافية لتطهيرها من الذنب. وفمها مثل مدخنة تبصق غيمة من الدخان، والأرض تميد تحت جسدها كالماء، وهى قطعة يابسة تغوص الى القاع، وترسو بقدميها فى بطن الأرض.

– إمرأة ساقطة الى هذا الحد؟

– ماذا تعنى؟

– ألا تعرفين ماذا أعنى؟

– أتراقبنى؟

- أجل، لولا ذلك ما رأيتك مع الرجل الآخر.

- وانا رأيتك هل نسيت؟

- أجل، هذا طبيعي، ويعطيني الله بدل المرأة أربعة ألا تعرفين ذلك؟

كان واقفا يمط عنقه، مملوءا بالفخر. كلما زاد عدد النسوة في حياة الرجل يزداد عنقه طولا. كان عنقه يمتد الى ما لا نهاية، مثل خط الأفق. مشهد يرعبها أكثر من الموت. يضعها هي والرجل في عالم يتأرجح. بيت قائم فوق الماء. ميزان تهتز كفتاه دوما عدل.

كان واقفا يتطلع الى أعلى. عيناه تبربشان. يحاول إمساك السماء بعينيه. كأنما هي الشئ الوحيد القابل للإمساك في مساحات من الوهم.

كانت راقدة في مكانها لا تزال. لامست بيديها خديها الملتهبتين بالصفعات. نظرت اليه بطرف عينها وهو واقف. كان بالقرب من الباب، لايبعد عنها بضع خطوات، وبدا بعيدا جدا كأنما هو غائب.

- كيف يمكن لرجل قريب الى هذا الحد أن ينسحب الى مسافة لا نهائية لمجرد حركة واحدة من طرف عينها؟

- أجل، هذا طبيعي، إن امرأة مثلك تتجاوز بإثمها الحدود يمكن برمشة عين أن تقلب النظام.

- أهو نظام متهالك الى هذا الحد؟

لم يكن في طاقته أن يرد. لكن قلبه في الباطن كان يهتز. كأنما كان

يخشى هذه اللحظة طول العمر. ما الذى يمكن أن يمحو هذا الإثم إلا أن تركع المرأة بين يديه. أن تبلل بدموعها قدميه وتطلب الغفران. أجل كلما اشتد هوانها اشتد كبرياؤه. فلا شئ ينتقص من كبرياء الرجل قدر إمرأة بلا إثم يملؤها بالندم.

كان واقفا ينتظر منها الركوع أو الدموع، ولهاث التوبة أو الندم. لكنها ظلت صامتة صمت الموتى فى القبور. لم يفلح معها التهديد بعقاب الأرض والسماء. لم يكن أمامه إلا أن ينتظر. مهما طال الوقت ينتظر، فلا شئ يمكن أن ينقذ كبرياءه إلا انفراجة شفتيها بكلمة مثل «إغفر لى».

- أكان فى عينيه استجداء؟

أجل، نعم، وبحركة من عينيها الملتهبتين انقلب الوضع. كأنما كانت تقلّب بجفونها الصور فى كتاب. بدا فى الصورة منثنيا الى أسفل، راكعا بين يديها، يبلل قدميها بدموعه، يستعطفها أن تنطق بالكلمة، «اغفر لى». أرادت أن تفتح فمها وتستغفره دون جدوى. شفتاها ملتصقتان بالنفط كالصمغ. جفونها أيضا ملتصقة كالشفتين، ورموشها تلاصقت بعضها بالبعض.

أمام عينيها لم تر إلا الظلمة. متى تتحرك هذه السحب السوداء بعيدا وتظهر الأضواء؟ إذا كانت الأضواء قد ظهرت هناك فلماذا لا تظهر هنا؟ وإذا كان الإثم قد وقع هنا فلماذا تعرضت للعقاب هناك؟

وانفتح الباب بقوة الريح المباغته. تدفق شلال النفط بصوت زاعق.

وانتصبت الكثبان السوداء بين الأرض والسماء. رفع الرجل ذراعه علامة اليأس. أدرك أن الفرصة ضاعت منه. وأن خوائه ربما انكشف لعين العالم، ولا أمل فى اخفاء الحقيقة.

- أكان ذلك بسبب تدفق النفط فى وقت غير مناسب؟!

إنه يتكلم مع نفسه وذراعه مرفوعة. كأنما يخاطب قمم الكثبان أو قوة ما غير محددة فى السماء.

- أيها النفط إذا لم تغرقها تماما حتى الموت فلن يبق فى العالم شئ من كبرياء الرجل.

يبدو أن النفط استجاب لدعاء الرجل، وانهمر الشلال بقوة أكثر، والمرأة ترفس بساقيها وذراعيها تقاوم الغرق. أجل، لم يكن للنفط أن يتخلى عن طبيعته وينحاز الى المرأة. هكذا أيقن الرجل.

- ألا تعتذرين عن خطيئتك يا مره؟!

- حاولت لكن

- هل سبق أن حدث ذلك من قبل؟

- نعم، حدث من قبل . . . .

قالتها وعيناها تتسعان بين السماء والأرض، تبادلت مع الرجل النظر دونما إرادة. رأت فى الضوء الشاحب نظرات متبادلة تهدم بقية الأمل.

أكانت لها حياة من قبل؟ لكن السؤال بدا أكبر من قوة خيالها. وأدرك الرجل أنها كانت آثمة طول الوقت منذ الولادة حتى الموت.

- آه، نعم، كنت أعرف ذلك، ما الجديد إذن؟

قال ذلك وهو يتسلق سلما عاليا الى السقف. كان سرواله المخلوع لا يزال فى الخطاف يتأرجح. ذراعه تمتد تحاول الوصول اليه، ظهره من الخلف مقوسا مثل صنم الجمل، ساقاه أيضا مقوستان يغطيهما شعر ناحل، مبللا بالعرق الأسود، يلتصق بعض بالبعض.

- الآن عليها أن تتخذ القرار وإلا فلن تتخذه أبدا.

هكذا بدا لها الأمر. البقاء إلى الأبد أو العودة الآن وفورا. كان هو أول قرار حاسم فى حياتها. أيكون النفط هو الذى أجبرها عليه؟ أو ربما ذكريات حياتها السابقة بدت أفضل مما كانت. وإن كان للصفحات ذكرى كالعلامات السوداء. لكن ضرب النسوة كان أمرا طبيعيا. والرجل لا يكف عن الاستعانة بالسماء. تهمس له السماء من أعلى: واضربوهن. لم يكن لها أن تتوقع مستقبلا أفضل، إلا اذا تقبّلت الضرب بكبرياء. وجعلت رأسها مثل رأس الإلهة سخمت مصنوعا من البرونز. وتدخل المطبخ شامخة بعنقها مثل الإلهه نفرتيتى. تقف أمام النار تبتلع الدخان فى بطنها كأنما هى بطن الأرض. تختزن الألم كأنه الحبل، ثم تتعطر من الخارج لتخفى الرائحة، وتقاوم الرغبة فى رفع ذراعها لتصفع الرجل، وتبتسم فى وجهه كالملاك.

- أيكون لك وجهان يا أمرأة؟

- وأنت لك الضعف، أربعة وجوه، أليس كذلك؟

كانت قوة النفط لا زالت تتدفق. تدفعها من جديد الى مالا تريد. كانت عاجزة تماما عن ادراك ماهو الحب الرفيع وما هو الحب الوضيع. منذ الطفولة أدركت أشياء هامة لا يدركها أحد. عبثا حاولت أن تبحث عما تريد البحث عنه. ولم يكن الرجل إلا عقبة فى حياتها مثل كثبان النفط.

- إنه رجل مثالى لا يستجيب إلا لطلب السماء بضرب النسوة.

هكذا كانت تواسى نفسها. فى أعماقها أرادت التوبة. أن تجعله يلعب دوره السماوى ويمنحها الغفران. فى اجتماع النسوة سمعت صوت المرأة الشابة. يشبه صوتها حين كانت فى عمرها إلا أنها لم تكن تخفى فمها بيدها كما كانت هى تفعل. تفتح شفتيها عن آخرهما وتبتلع الذرات السوداء كأنما هى لاشئ.

- فى غياب الحبل تلعب المرأة دور الأم، وتجعل من الرجل طفلا، فتمنحه دورا يلعب به.

لم تكن تعرف لماذا لم يرتفع بطنها. نساؤه الأربعة أيضا بلغن اليأس بلا أمل. رفعن أيديهم للسماء يطلبن الحبل. نادين على جميع الأنبياء والقديسين بالأسم. لم يستجب اليهن أحد. نادين على الست الطاهرة وغيرها من القديسات دون جدوى.

- أيكون الرجل هو السبب؟

- لا يمكن، ما دخل الرجل بحبل النسوة؟!

تحت ضلوعها أحست العضلة تنتفض. وفى رأسها عضلة أخرى تطرد الفكرة. هذا الطفح الأسود فوق وجهها ربما كان الفيض فى حنان الأمومة، أو ربما هو الحنين إلى رحم الأم.

- أتكون أمها قد دفنت حيّة فى بطن الأرض، وهذا هو ما يدفعها إلى الحفر بالأزميل رغم استحالة الأمر؟

كان فى مقدورها أن تدور حول الأرض وهى راقدة ثم تعود الى النقطة ذاتها حيث كانت. والرجل أيضا كان هناك. عاد لتوه من العمل. لون وجهه ممتقع والنمش الأسود يزداد سوادا فى وجهه.

- هل وَشَيْتِ بى؟

- ماذا تعنى؟

- أعرف أنك تتحرّقين شوقا للانتقام منى، لكنى أحذرك، نحن شريكان فى كل شئ، بل أنت التى كنت تحرضيننى دائما ضد صاحب الجلالة، وكنت أقاوم إغوائك لى، بكل قوتى، وإذا أنا استسلمت يوما فلم يكن ذلك إلا بسبب اليأس من إصلاحك. أجل، إنك ضلع أعوج لا يمكن إصلاحه إلا بكسره.

كف صدرها عن الحركة وبدأت تختنق. إنه رجل بلا كبرياء. فى حياتها

السابقة كانت له رجولة اكثر. كانت تريد أن تصرخ بكلمات محبوسة تود الخلاص منها. كلمات ينبغى أن تلفظها قبل نهاية العالم. كلمات نابية، طعمها كالغثيان، تتمتم بها النسوة فى الفراش مع الرجل. وكانت الحرارة قادرة على إذابة الحياء، وتنقلب الرذيلة الى فضيلة بحركة من شفتى الرجل.

- لا أريد أن يعرف أى أحد ما حدث، ذات يوم يمكننا أن ننسى كل شئ ونحتفل معا بعيد صاحب الجلالة، هاتى يدك فى يدى.

ذراعه كانت ممدودة نحوها مثل العصا الطويلة. قبل أن تمد يدها كان قد قبض عليها بأصابعه. أصابع كبيرة تغطيها البقع ونتوءات فوق الجلد بلون النفط.

فى الليل حاولت أن تحرر يدها من يده دون جدوى. وانقلبت على جنبها الآخر. أصبح وجهها للحائط.

- أجل، غدا أهرب حين يخرج الى العمل.

وهى تحملق فى الحائط سقطت فى النوم. رأت نفسها جالسة فوق الجسر تنتظر ظهور الأضواء. يدب الصمت حين تكتمل الظلمة، ثم تبدأ نقط الضوء تظهر من بعيد، تتكاثر كأنما تتوالد، بالآلاف أو الملايين، بلا عدد كالنجوم، تتجمع فى شعاع أبيض يحلق فى الأفق، يهبط فوق السطح، وتهمس الست الطاهرة فى أذنيها.

- هيه؟ ماذا فعلت حتى الآن؟! أترقدين هكذا مثل بقرة مريضة؟!

شدت جسمها من تحت الغطاء. كانت العاصفة تلقى بالغبار الأسود. سيل منهمر من السماء ومن بطن الأرض. الرجال يملأون البراميل، من بعيد تراهم فوق خط الأفق كالظلال السوداء الصغيرة، بحجم الأطفال يحركون أذرعتهم فى الهواء كأنما يلعبون، يحاولون إفراغ مياه البحر فى جرادل صغيرة، أو افراغ السماء من الهواء فى دورق من الصفيح.

التوى عنقها تحاول النظر الى النسوة. ظل البرميل فوق رأسها ثابتا. لم تعد تسقط منه قطرة واحدة وإن حركت رأسها. كان الوصول الى النسوة يقتضى الانزلاق فوق المنحدر المغمور بطين النفط. فى منتصف الطريق توقفت. نظرت من خلال الأفق الى الكثبان السوداء، والبيوت الأكثر سوادا عند السفح، والأسطح غارقة فى الظلمة، مغطاة بالبراميل المقلوبة، وأبراج حمام أسود الريش يشبه الخفافيش، وأطراف المآذن ورؤوس المقابر كالصلبان المرفوعة. لم تكن تعرف اسم هذه القرية التى وجدت نفسها فيها بالصدفة. كانوا يسمونها مسقط الرأس، أجل، أى مسقط هذا الذى تهاوى فيه رأسها؟

رفعت النسوة أذرعهن. نزعن البراميل بحركة قوية من العنق، وانثناءة من الجذع. جلسن على حافة صخرة يغطيها طحلب أسود. كانت الأرض مبللة رطبة. الصمت يدوى كصفير الريح. سطح البركة يتموج تحت الضوء الشاحب، أمواج تتعاقب وتتكوم فى الأركان مع الطحالب. والكثبان تحوط المكان كالجدران تحجز كل ما وراءها فى العالم.

كانت هى تجلس فى الوسط، كما كانت خالتها تجلس وسط النسوة. أخرجت واحدة من جيب جلبابها ورقة مطوية. كانت الحروف بالحبر الأسود بخط زوجها، أو رئيسها فى العمل، وختم صاحب الجلالة بطبيعة الحال.

مدت النسوة أعناقهن يحاولن القراءة. بدت الحروف غريبة كأرجل صراصير الليل الأسود.

– هذا مفزع.

– أهناك وسيلة لإنقاذها؟

– مساعدتها على الهرب؟

– آه، لكن.

عند هذه الكلمة أطبقت النسوة فى صمت. سمع صوت يشبه أنفاس مكتومة، هواء محموم يخرج من الصدر، أو ربما هو صوت انسحاب الروح من الجسم. وانفرجت شفتاها عما يشبه الصرخة. أجل، كلنا فى حاجة الى الهرب، ولكن إلى اين والعالم فارغ، ومن قبل، نعم، من قبل قلت لكن مرارا هذه الكلمة «التضامن». لكن هذه الكلمة ممنوع النطق بها، وكأنما هى الشيطان أو إلهة الموت سخمت.

– سخماط؟

– علينا أن نصحح النطق وهذا فى يدنا لأنه لسانا الذى ننطق به.

– لن نكون جديرات بحق نأخذه من أيادى ليست أيادينا.

- وهكذا نسمح لأنفسنا بأوضاع لا ينبغى أن يقبلها الحيوان.

- ليس أمامنا الا عدد محدد من الاشياء التى يمكن لنا أن نفعلها بأيدينا.

- الهرب مثلا؟

- سنهرب فوق أرجلنا، هذا واضح، فوق أرجلنا وليس أرجل غيرنا.

- وتذكرة السفر؟

- آه تذكرة!

- علينا أن نطالب بأجورنا.

هتفن فى نفس واحد. أصبحت الكلمة مثل كرة من الضوء تنط من فم الى فم، ترتطم بالظلمة كالجدار، فتعود مرتدة يحملها الهواء الى حيث الفم لازال مفتوحا، تدخل فيه حيث كانت قبل أن تخرج، ويدب الصمت.

- ألم نطالب بأجورنا من قبل؟

- أجل من قبل.

- علينا إذن أن نكف عن المطالبة ونأخذ أجورنا بأيدينا.

- أجل، لن نكون جديرات بحق نأخذه من أيادى ليست أيادينا.

وتبادلت النسوة النظرات من وراء الغطاء الأسود. هرشن رؤوسهن حيث التهب الجلد تحت قاع البرميل. لم تتحرك عضلة واحدة فى وجوهن. ولا

الشفاه انفرجت عن صوت. عيونهن تتذبذب من تحت غمامة. كانت هى تنظر الى البركة المغطاة بالغبار. الطحالب فى الأركان يجرفها التيار. تبدو البركة عميقة كالبحر أو المحيط. وأجساد ميتة ترقد فى القاع.

– أهناك من يراقبنا؟

من وراء الثقب فى الباب كانت العين تطل. عرفته على الفور من ظهره، الصنم كان بارزا تحت الضوء الشاحب. رفعت النسوة أذرعهن بحركة واحدة قوية. عادت البراميل واستقرت داخل الحفر فوق الرؤوس. لم تعد ترى منهن إلا ظهورا مقوسة. أجسادهن صغيرة كالأطفال يتناقص حجمها بالابتعاد، ولا صوت إلا هفهفة الجلاليب من بعيد كحفيف الهواء.

كانت وحدها جالسة. ظلمة الليل تضعف. الظلام كالستار كان يحجبها، فإذا بالضوء يكشفها، ورأت الرجل واقفا، أدركت أنه رآها، وهى كانت من قبل رأته. واقفان متساويان فى الرؤية وطول الجسم. لم يكن لهذا الوضع المستقيم أن يحدث فى عالم غير مستقيم.

– لم يعد أمامك فرصة.

قالها بنبرة كالغضب. يحاول بالغضب أن يخفى عدم الاستقامة. إنها فرصتها الأخيرة وان ضاعت فلا شئ بعدها. ورفعت ذراعها تحمى وجهها من الصفعة. إن لم ترفعها الآن فلن ترفعها من بعد. وان عاشت تعيش مرفوعة الرأس. وان ماتت تموت وهى ترفس، لا تكف عن الرفس حتى آخر نفس.

- هذه المرأة تنزف.

أجل كانت النسوة فى حاجة الى النزيف، والا فسوف يبقى العالم كما هو وينتهى كل شئ الى لا شئ. علينا أن نأخذ دم هذه المرأة الطازج وننقله الى العالم المشرف على الموت.

- أخيرا أغمضت عينيها وماتت واقفة كالشجرة.

ظلت واقفة فى مكانها، عاجزة عن الحركة. جذورها فى بطن الأرض. رأسها عاليا تطوحه الريح. أوراقها ترتعش، تنثنى ذراعيها وتلتوى كالفروع. تحاول دون جدوى التخلص من أغصانها. الهواء يحتك بها بصوت مسموع وإيقاع منتظم كالأنفاس فى النوم.

- أتعودين للنوم فى هذا القيظ؟!

سألها بصوت مملوء بالغيرة. كأنما يغار من قدرتها على النوم. كان تدفق النفط يأكل الجدار، والغيرة تأكل قطعة من لحمه تحت الضلع الأعوج. ونهض واقفا ينزع عنه ملابسه كأنما يخلع عنه جلده.

- لم أعد أحتمل، وعندى رغبة

- فى الكتابة؟

- أجل

- لديك الآن هذه الآلة الجديدة ولست فى حاجة الى معرفة القراءة أو الكتابة.

- أجل، لكن صاحب الجلالة يريد مقالا فى عيد ميلاده غدا.

- أجل، يمكن للآلة الجديدة فى بضع دقائق أن تنسخ مقالك فى العام الماضى أليس كذلك؟

- أجل، نعم، إنى أعرف ذلك.

- ما الجديد إذن؟

بغريزتها كانت تدرك كل شئ. فى أعماقها كان الخواء ينتشر. ما جدوى التظاهر إذن؟ ما من حاجة تدعو الى التخفى. ربما كان لا يزال بينهما شئ من العاطفة، بقايا حب فى حياتها السابقة. لكن الريح هبت وجرف تيار النفط كل شئ.

وسمعت صوت رجل البوليس يدق على الآلة ويدور بالكرسى حول نفسه.

- كما ترى لقد خرجت المرأة فى إجازة.

- أجل هذه الحالات أصبحت عادية تماما، ومن كل ثلاثة من النسوة تخرج واحدة.

- أهو مرض جديد؟

- أجل، نسميه عندنا فى الطب النفسى انفصام فى الشخصية.

قال «عندنا فى الطب النفسى» والتوى عنقه نحو السماء بزاوية حادة، واهتز الغليون المثبت فى زاوية فمه.

- أتعنى ازدواجية الشخصية؟

- لا ، فى الإزدواجية تكون المرأة والشخص الآخر اثنين متلازمين على نحو إجبارى، أما فى الانفصام فإن المرأة تصبح هى وذلك الرجل الآخر شخصا واحدا. مفهوم؟

- أجل، أعرف ذلك، والنتيجة واحدة على أى حال.

- بالطبع، لكن الازدواجية حالة طبيعية تماما ، وجميع النسوة يندرجن تحت هذا النوع.

- أجل، أعرف ذلك، الا زوجاتنا طبعا.

- بالطبع، لأن الرجل منا يختلف عن جميع الرجال. فنحن من سلالة مميزة عن البشر تمتد الى الأنبياء، الم تسمع حديث صاحب الجلالة بمناسبة عيد ميلاده؟!

- أجل، سمعته، كان خطابا تاريخيا ، وقد كتبت ذلك فى مقالى فى الصحيفة ولابد أن جلالته رآه.

- لابد أنه رأى الصور على الأقل، فإن جلالته لا يعرف القراءة كما تعرف.

- أجل، أعرف، وليس فى ذلك عيب، وكان الأنبياء جميعا لا يعرفون القراءة ومع ذلك قادوا العالم الى عصر جديد.

- أجل، أعرف ذلك، لكن جلالته يحب الصور الملونة، خاصة صوره ولا

يمل النظر الى صوره المنشورة فى الصحف، وفوق الشاشة، أليس كذلك؟

- أجل، هذا طبيعى لرجل عظيم مثله يقودنا الى عصر النفط الجديد.

- أجل، ما العيب فى النفط؟

- لا شئ! إلا

- ألا ماذا؟

- لا شئ.

- أحس أنك تريد أن تقول شيئا، هيا تكلم ولا تخف.

- أبدا مجرد شئ تافه، حين عدت من العمل اليوم وجدت ورقة صغيرة.

- ورقة صغيرة؟

- نعم، ورقة صغيرة فوق الكرسى بجوار السرير.

- أجل، فوق الكرسى بجوار السرير، أعرف ذلك.

- كيف عرفت؟

دب الصمت كالموت. لم يسمع إلا صوت أزيز المروحة، وأنفاسهما تلهث. ثم جاء صوت أحدهما بعيدا وخافتا كأنما من بطن الأرض.

- وماذا كَتبتْ لك فى الورقة؟

- أجل، لاشئ، مجرد أنها خرجت فى اجازة، هذا كل ما فى الأمر.

- أهذا كل ما فى الأمر؟

- نعم، هذا كل ما فى الأمر.

- أجل، أنا أيضا وجدت ورقة.

دب الصمت مرة أخرى كالموت. كف الهواء عن الحركة. المروحة أيضا كفت عن الأزيز. أنفاسهما كأنما توقفت تماما.

حركت رأسها من فوق الوسادة. كان الرجل راقدا مفتوح العينين. فجأة رنت الضحكة فى ظلمة الليل. أجل، كان هو الرجل الذى يضحك عن يقين كان يضحك. ربما كان بالضحك يخفي شيئا آخر. وجهه كان ناحية الحائط ولم تعرف فيما يفكر. لكنها حين سمعته يضحك ضحكت هى الأخرى. وبدت الحياة أفضل مما كانت

- أجل، طالما أن لديه القدرة على الضحك فلن يكون هناك داع للهرب على الأقل الليلة، ويمكنها مواصلة النوم، وفى الغد تبدأ محاولة جديدة.

(تمت)

رقــم الإيـــداع ٨٥١٦/ ٩٢
I .S .B .N . 977- 208- 088 - 5









الحب في زمن النفط

هذه الروايــه

عن إمرأة خرجت فى إجازة ولم تعد ، محظور إيوائها أو التستر عليها حسب القانون فلم تكن النساء تخرجن فى إجازة . وإن خرجت واحدة فهى تخرج لقضاء حاجةً ضروريةً . قبل الخروج لابد من تصريح مكتوب من زوجها ، أو مختوم من رئيسها فى العمل .

فلماذا خرجـت ...؟!

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel: 756421